

رواية

الحيّ الخلفي

محمد زفزاف

رؤية R

الحيّ الخلْفي

روايـــــــة

محمد زفزاف

للنشر والتوزيع

2013

رؤية للنشر والتوزيع

2013

عنوان الكتاب : **الحيّ الخلفي (رواية)**

اسم الكاتب : **محمد زفزاف**

الناشر المسؤول : **رضا عوض**

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة : 012/3529628

6 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين

تقاطع ش شريف مع رشدي

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس : 25754123 (202) +

هاتف : 23953150 (202) +

الإخراج الداخلي : **حسين جبيل**

جمع وتنفيذ : **القسم الفني بالدار**

الطبعة الأولى : 2013

رقم الإيداع : 2013/3241

الترقيم الدولي : 978-977-499-090-8

1

كانت هناك، إلى جانب الطريق الرئيس، من الطرف الآخر، عمارات من أربعة طوابق أغلب شبابيكها مغلقة، وهناك مساحات أخرى إما مستوية أو محفورة بين شتى العمارات، نبتت فيها أعشاب قصيرة متوحشة، أو تكوّمت فيها أتربة من مخلفات الحفر. ومثل هذه العمارات المغلقة النوافذ أو التي لم يستكمل بناؤها والمنتشرة هنا وهناك لا بد وأن يحتلها بعض السكان الغرباء إلى حين قرب الصيف، موعد عودة أصحابها الذين يشتغلون في أي شيء في أوروبا، وينامون في أي مكان حتى ولو كان حظيرة أو زريبة، ويقتاتون مما يمكنه أن يملأ البطن، وفي نهاية العمر يعودون إلى الوطن

من أجل تحصيل ثمن الكراء بعد أن يكون الجسد قد أُنهك. وبطبيعة الحال فإن مجموعة من هؤلاء الذين يحتلون تلك البنايات قد لا تكون لهم صعوبات حتى ولو كان لهم أبناء؛ فهم ينجبون والسلام. فكما وُلدوا في البادية بدون هوية وبدون علم من الدولة فهم يفعلون نفس الشيء في الضواحي أو في أماكن أخرى مثلما يفعل الذباب والصراصير والزنابير، وهم بدون هوية دائمًا إلا وقت الانتخابات؛ إذ يخرجون كجرذان ليقولوا - بصوت واحد - «نعم» وبعد ذلك يعودون إلى جحورهم المظلمة. عين المقدم تمرّ بكل تأكيد في كل زقاق وتتسرب إلى أية بناية مسكونة أو مهجورة وهو يعرف أسماء أصحابها الأصليين واحدًا واحدًا، كذلك فإن الساكن الغريب الطارئ لا بد وأن يدفع دون أن يبلغ جاره، وحتى لا يبلغ الجارُ جارَهُ، حتى لا يسمع مسؤول كبير بذلك.

فالمقدم مجرد منفذ، وكان السكان الغرباء يفهمون ذلك جيدًا، ويعرفون أنهم مطرودون في هذه اللحظة أو في تلك، بل قد يتعرضون للسجن؛ لذلك، وبعيدًا عن هذه البنايات تكَوّمت مجموعة من أكواخ الصفيح الواطئة المتربة، هي في الغالب ملكٌ لهؤلاء الغرباء مغتصبي أملاك غيرهم، أو هي ملك لأقاربهم، فعندما تُشَمُّ أدنى رائحة، أو يُسمع أدنى طنين فإن الغريب يجرّ أبناءه ويهرب إلى تلك الأكواخ وإذا لم يكن له جحر هناك، فإنه يتربص على قارعة الطريق وينتظر أول

شاحنة لتنقله إلى أقرب نقطة للقرية التي هاجر منها، وحتى هذه تكون فرصة لكي يتفقد دجاجته أو شاته أو حماره، آملاً أن يعود بعد أيام أو شهور إلى المدينة. حالمًا بدجاجاتٍ وشياهٍ وحمير آخرى، أو حالمًا بثروة طويلة عريضة يستطيع على إثرها مغادرة البادية نهائيًا والاستقرار في المدينة بصفة نهائية. كثيرون هم الذين جاؤوا إلى الدار البيضاء متشعبطين في عربة أو شاحنة أو مشيًا على الأقدام، ناموا في الشوارع الخلفية والأزقة والحدائق العمومية والإسطبلات، ولكن بعد مرور الوقت أصبحوا أثرياء؛ بنوا الدور والعمارات والفيللات وأسسوا شركات وأصبحوا أعضاء في البرلمان والجماعات المنتخبة وهم لا يفرقون بين الألف والهراوة، ومن الأفضل ألا يفرقوا لأن الهراوات نزلت كثيرًا على ظهورهم لكنها لم تقصمها، بل استطاعوا أن يمتلكوا هم فيما بعد هراوات ذات رؤوس مدببة وشائكة. الآن بعد أن اغتنوا زادهم الله غنًى في غنًى، ولك ذلك في مصلحة أبناءهم الذين لم يعرفوا ذات يوم قبضة العتلة والفأس.

في ذلك المساء الشتوي البارد كانت الحركة غير عادية، وكان الضوء ينبعث باهتًا خافتًا من بعض النوافذ، فأغلب الغرباء يضيؤون بالشمع، ويصبح حديثهم همسًا حذرًا كأنهم يتوقعون دائمًا شيئًا مفاجئًا، لكنهم لا يخافون ذلك الشيء المفاجئ لأنهم يتوقعون وعندما يتوقع الإنسان شيئًا ما فإنّ تحمّله لوقوعه يكون أهون، ظلّت سيارة القائد واقفة على

حافة الطريق يركبها سائق أكرش دائمًا ومنفذ دائمًا، وخلفها كانت سيارة أخرى رابضة هي الأخرى وقد نزل سائقها وترك الباب مفتوحًا ليُدخن سيجارة على مزاجه في غيبة القائد، والسائق يقدر جيدًا المدة التي يمكن أن يتغيب فيها القائد إذا نزل في مهمة مثل هذه، يمكنه إذن أن يدخن حتى أربع سجائر وأن يشرب شايًا ساخنًا في خاطره، لكن من أين له الشاي؟ فكأن القائد يعرف كل ما يجري في هذه البنايات في حين أن المقدم كان متيقنًا بأن القائد لا يعرف شيئًا وتفرض طبيعة السلطة أن نترك الآخرين مخدوعين، ذلك هو تفكير القائد، فهو دائمًا يسأل المقدمين والشيوخ عن أشياء يعرفها جيدًا مدّعيًا أنه جاهل بها. لعبة شدّ الحبل (أمسك من الطرف الأول جيدًا ثم أتخلص منه في الوقت المناسب لأتركك تسقط في النهاية). القائد الصامت الجاد المهتم يعرف كل شيء عن هذا الحي، مثلما يعرف أشياء كثيرة عن أحياء أخرى تابعة لمقاطعته، ولكن دائمًا مندهشًا، حذرًا، قلقًا على خرق القانون - على الأقل أمام موظفيه وأعوانه، لكن الجانب الآخر الخفي يبقى دائمًا في الظل ومبعثًا للشك، ومهما يقل عنه فلا أحد يستطيع أن يصدق أو ينفي ذلك، كل ما يعرف عنه أن أصله من تاونات، وأنه لم يتزوج إلا مؤخرًا وأنجب بسرعة ثلاثة أبناء على التوالي، وفصل زوجته الممرضة عن العمل لأن لها احتكاكًا يوميًا بأكبر عدد ممكن من الناس، بل إنه منع حتى أطفاله من اجتياز عتبة الفيللا الصغيرة حتى لا يختلطوا بأقرانهم. كان له عالمه الخاص وكانت له حاسة شم قوية مثل

سلوقي متمرن، سلوقي يتربص قبل أن يطارد، هو الآن في هذا المساء البارد غير الممطر لا يتربص ولا يطارد بل هي مجرد جولة روتينية تثبت أنه حاضر دائمًا.

قال أحد الأعوان:

-كان عليك يا سيدي القائد ألا تأتي بنفسك في هذا البرد، نحن نستطيع أن نتكفّل بكل شيء ونأخذهم إليك واحدًا واحدًا مكبلين.

-لا يهم، هذا شغلي، والواجب يقتضي مني ذلك.

وقال عون آخر:

- معك حق سيدي. أنت أدريى بالأمور وما علينا نحن إلا أن ننفذ، سيدي لأني ما أزال أتتبع خُطى الأسود المدعو فنطوس، يقال إنه اغتنى في هذه الأيام لأنه جلب كمية من النبيذ الإسباني معلبة في علب كارتون غير قابلة للكسر مثل الزجاج، وسمعت أن له امرأة سيسفرها إلى سبتة لتجلب له هذا النوع من النبيذ الرخيص الثمن، وهي أيضًا تسكن هنا في هذا الحي، لكن من تكون؟ كثيرات هن اللاتي يسافرن إلى سبتة أو مليلية.

- تلك مهمتكم أنا لن أظل رابضًا مثل كلب حتى أعرف هذا من ذاك، تعرفون أنه ليس لدي حتى الوقت لأحك قنة رأسي.

كانت أزقة الحي مليئة بالحفر وغير مبلطة وكان القائد يسير ببطء كما لو أنه يمشي على البيض، لم تكن هناك أصوات في هذا الفضاء المظلم وكانوا يسيرون من زقاق لآخر، وكان المفروض أحيانًا أن يتجمع مجموعة من الشبّان يثرثرون ويتحششون في زاوية هذا الزقاق أو ذاك ويشربون ماء الحياة المجلوب من مدن الجنوب، فهو رخيص الثمن ويـ تطيع مع قليل من الحشيش أن يحلق بصاحبها إلى مركز الشرطة، ثم إلى قاضي التحقيق، ثم إلى سجن غبيلة، لا بأس! فالسجن أهون من الإقامة فى مركز الشرطة، ففي السجن هناك على الأقل حشيش وأكل وأحيانًا علب سجائر أمريكية، يحصل عليها السجين بالدفع، دفع أي شيء حتى ولو كان... لم يعد أي شيء عيبًا في هذه الحياة ما دام الإنسان مصرًا على أن يعيشها.

وقال المقدم الأشقر للقائد:

- سيدي! لقد انطفأ الضوء دفعة واحدة في نافذتي بيت فاطنة لا شك أنها أحسّت بشيء وأن لديها مومسات وزبائن.

وظهر الجانب الخفي لدي القائد عندما قال:

-ألا تترك عليك تلك المرأة.

سكت لحظة ثم استدرك:

- أنت لا تجلب لي من بيتها سوى تلك الفتيات المحروقات الجلد، ماذا نفعل بهن عندما نقدمهن للعدالة؟ هل نقول عثرنا عليهن بدون بطاقة هوية؟

-سيدي، أحيانًا يكون عندها زبائن لا يحبون الظهـور في الأماكن العامة.

-معنـى ذلـك أنـك تريـد أن تورطنـا إذا مـا اصـطدمنا بشخصية مهمة، وماذا يفعل زبون من هذا النوع في خرابة مثل هذه، ومع أولئك الجرباوات.

- إنهـم لا يفعلـون شـيئًا سـيدي، يـشربون ويتمتعـون بالكلام البذيء ثم ينصرفون.

- هل رأيت سياراتهم الفارهة واقفة عنـد البـاب؟ هـذه المرة عندما تريد أن تتكلم، فكر فيما تقول، طيب اذهـب إليهـا وأخرج كل من في البيت.

قال الأشقر:

-حالاً سيدي.

ابتعـدت المجموعـة قلـيلاً وهـي تـتلافى الحفـر وبعـض الأحجار أو أكوام الطوب التي تصلبت، سمعوا سعالاً واهنًـا ضعيفًا قادمًا من جهة البـاب الـذي اقتحمـه الأشـقر، كانـت فاطنة ملفوفة في بطانية، وقد شدّت عـلى رأسـها فوطـة فـوق المنديل وتبعها الأشقر في تخاذل تام، وشعر بكل مـا يـشعر بـه إنسان حقير ضبط متلبسًا، ولم يجد أدنـى فرصـة للـدفاع عـن نفسه وقال الأشقر:

- سيدي، ليس هناك أحد.

وقال القائد غاضبًا:

- ولماذا جئتني بها وهي في هذه الحالة تسعل مثل جروة تحتضر؟ هل تريدها أن تموت في القسم؟

وقالت قاطنة وهي ترتمي على قدمي القائد:

-أرجوك سيدي، إني مريضة منذ ثلاثة أيام، لقد جلبت معي البطانية إذا أردتم أخذي إلى القسم. الجو بارد جدًا سيدي القائد، الله يخلي لك أولادك، الله يرحم والديك.

قال القائد بصوت صارخ مفتعل:

-ادخلي إلى بيتك، إن أخبارك تبلغني لا شك أن أواخر عمرك سوف تقضينها في السجن. ألا تثوبين إلى ربك؟

قالت:

-ليس عندي أحد في هذه الدنيا يا سيدي.

لكزها أحد المقدمين:

-اسكتي عندما يتحدث إليك سيادة القائد.

-نعم يا وليدي.

-اذهبي.

ذهبت وذهبوا، فكانوا يحفون بالقائد ويمشون مشيته مزهوين بأنفسهم رغم أن الليلة كانت غير عادية، وإذا ما ظلّوا على هذه الحال فإنهم لن يلقوا القبض على أحد في هذه الليلة لكنهم يعرفون جميعًا أنه يلبي نزوة داخلية فقط، وبعد لحظة فقط سوف يأمرهم بالرجوع بعد أن يكون قد قام بواجبه هو، وبعد ذلك سوف يترك لهم القيام بواجبهم الذي يعرفونه ويعرفه جيدًا، عندما يعودون سوف يتوزعون المهام، كل واحد منهم يعرف أوكاره، لا بد وأن تكون الليلة مربحة وإلا ماذا سوف يأكل الأطفال. إن ما يتقاضونه في الشهر لا يكفي حتى لملء خزّان الدراجة النارية القديمة بالزيت. إن كل واحد عليه أن يتدبر أمره ما دام متشبثًا بالحياة، الشبان في الأزقة يتدبرون أمورهم وأخواتهم يفعلن نفس الشيء، وأحيانًا يغفلن ما يفعلن فيصبحن مهربات يذهبن إلى تطوان أو سبتة أو أية مدينة في الشمال لجلب السلع المهربة، وفي طريق الذهاب والإياب لا أحد يعرف ما يفعلن إلا أنهن فتيات جادّات يكسبن رزقهن بعرق جبينهن، وعلى كل حال فهن لسن ساقطات يتعيشن من بيع أجسادهن هكذا قالوا، وهكذا نام الأب مستريح الضمير ووقف الأخ في رأس الشارع مزهوًا أمام أقرانه، لأن أخواته الأربع أو الخمس المتكدسات في غرفة واحدة فاضلات، ولذلك لم يتزوجن، فالزواج اليوم من قسمة الفاجرات، لكن كل واحد يتدبر أمره لكي يعيش، يدخن

الأخ سجائر أمريكية فاخرة وفي الحانة يفعل المقدم نفس الشيء أمام زجاجات بيرة مثلجة، وعلى كل حال فالأمور تسير، سواء في هذا الحي أو حتى في حي مدن الصفيح، هناك أكتاف عريضة كثيرة، وهناك أرداف لا تتحرك إلا بالكاد من كثرة السمنة، فكأنما أصحابها يأكلون التين المعسل. يا سبحان الله! كانت المصابيح في الطرف الثاني من الحي تضيء الطريق الرئيسي، ولم يكن يظهر أي أثر لحي الصفيح، انتهت الجولة في الظلام ومشى القائد باتجاه السيارتين وتنفس كل من يرافقه، لقد لبّى رغبته الأثيرة. ومن يدري؟ فلربما لم تكن رغبة ولكنها عمل شاق كريه من المفروض عليه أن يسميه واجبًا، وباسم الواجب يتم الحسم في كل شيء حتى ولو كان ذلك الحسم ظلمًا.

ألقى السائق عقب سيجارته الثالثة. عندما رأى المجموعة قادمة صعد إلى السيارة وحلم بشاي ساخن وبزوجته تدلّك قدميه بالماء الدافئ، بعد أن تزيح عنهما فردتي الحذاء الثقيل. وكان من حق الآخرين الوافدين كذلك أن يحلموا، ثم تحركت السيارتان باتجاه المقاطعة وبعد حوالي ربع ساعة أصبح الحي المظلم مثل سوق عمومي وأشعلت الأضواء في النوافذ وتجمّع الشبان في الأزقة ليتحششوا ويثرثروا ويحلموا إلى آخر الليل.

2

تنتصب البلوطة العجوز وحيدة منفردة في الخلاء بعيدًا عن بيوت الصفيح وعن باقي الأشجار الأخرى المتشبثة في الأرض كيفما اتفق، وعند جذع البلوطة حفرة كبيرة قد يكون طولها حوالي العشرة أمتار وعرضها بدون مقاس، يتجمّع فيها ماء المطر في الشتاء ليتن ويعطن ويجف فيما بعد، ويحف بالحفرة شجيرات قصيرة يمكنها أن تحجب الإنسان وهو جالس، وعند البلوطة الآن كانت هناك جماعات متفرقة من شيوخ وشبان. الشيوخ يلعبون الورق أو الضامة، بينما الشبان يقامرون من أجل سكرة هذا المساء، وكان الأطفال بعيدًا عنهم يتصايحون ويصرخون وراء الكرة في ساحة صلبة،

وكانت أيضا بعض العصافير تزقزق في مكان ما. قال الهراوي:

-لم يحصلوا على شيء أمس، لقد جابوا الحي كله ولم يحصلوا على شيء، حتى فاطنة لم يجدوا عندها أحدًا.

-لا تقل هذا الكلام إنهم أذكياء ولو أراد القائد أن يفتش كل البيوت لفعل ولعثر على السلعة المهربة التي تجلبها من سبتة.

لم يكن الهراوي من الغرباء ولكن البيت الذي يسكنه هو وأمه وأخته ملك لهم. لقد اشترى والده قبل أن يموت بقعة من الأرض وبنى الطابق الأرضي، لكنه لم يحقق حلمه فمات. كان ينوي بناء ثلاثة طوابق إلا أنه مات في حادثة سير. سوف يكبر الهراوي وسوف يكمل دراسته وسوف يتوظف وسوف يزوجه أبوه ويسكنه في الطابق الأول ويربي أبناءه، لكنه مات مثلما ماتوا ويموتون وطُرد الهراوي من المدرسة لكثرة تغيّبه ولأنه كان صغيرًا وصبيًا جميلاً أفسده من هم أكبر منه سنًا. وها هو الآن قد كبر وتشوّه وجهه بضربة سكين معلم. وهذا لم يمنعه هو بدوره من إفساد الصبيان الذين علّق عليهم آباؤهم أملاً فدلّلوهم ليدرسوا ويكبروا ويتوظفوا وينجحوا وينقذوا عائلاتهم من حياة الكلاب تلك، لكن الهراوي لم يحقق أي شيء لنفسه وما تزال والدته تحمل له المؤونة والسجائر إلى

السجن كلّما وقع في حملة تطهير، مثلما تفعل باقي الأمهات والأخوات والصديقات لهؤلاء الذين يغامرون الآن تحت البلوطة، وكما سيفعلن بالتأكيد مع أولئك الأطفال الذين يلعبون الكرة هناك والذين سوف يشيخون قبل الأوان إما في زنزانة أو في زاوية أحد الشوارع منهكين متعبين مثل جياد جرباء عرجاء مشوّهة تُساق إلى المجزرة في صباح باكر أغبش.

كانت أوراق الشجيرات القصيرة تبعث خشخشات واهنة من حولهم وأحيانًا عندما يخسر أحدهم يكسر أحد الأعواد ثم ينزل إلى الحفرة كأنما يدفن نفسه، ثم يصعد إليهم من جديد لكي يستأنف اللعب، أو ينصل من الطرف الثاني من الحفرة، يعود فيما بعد أو لا يعود. كانوا الآن ثمانية وقد يحصل أن يمرّ مقامر غريب ليلقي ببعض نقوده وينصرف، فهم لا يرحمون المقامر الغريب العابر إذ سرعان ما يتكتلون ضده لكنهم في النهاية لا يرحمون بعضهم على بقعة القمار، وبقدر ما يتكتلون ضد مقامر غريب عابر، فهم يتكتلون في السجن، ويشتركون في الطعام والسجائر والحشيش، كما يتكتلون ضد أي اعتداء على واحد منهم وخصوصًا ذلك الاعتداء القبيح المعروف الذي تنفر منه النفس، لأن الرجل رجل، والمرأة امرأة، وقال العطاوي لأحمد الذي انتقلت الدورة إليه من يد الهراوي:

-هذه الحيلة ليست معي لا تفعلها معي، أنا أعرف أنك غشّاش.

قال أحمد:

- أنظر إلى أصابعي، هل تعتقد أنني ساحر؟

- إذا لم ترد أن تلعب فاسحب فلوسك أنا أستطيع أن ألعب معك مائة درهم أمام الشهود، هل تستطيع ذلك يا ابن العريان؟

ثم ألقى الأوراق وسط المجموعة ووقف منتصبًا بقامته الطويلة وأدخل يده في جيب سرواله الخلفي وأخرج كمشة من الأوراق النقدية لا يعرف أحد من أين أتى بها، غير أن الذهول لم يظهر على وجه أي واحد منهم، ولكن النظرات المشعة كانت تشي فقط بالتساؤل، من أين له كل هذه الثروة؟ فهم أيضًا يصبحون أثرياء بهذه الطريقة أو بتلك لكنهم يعيشون لحظة الثراء تلك بالطول والعرض، ينفقون في الحانات ويجرجرون معهم مومساتهم إلى بارات عين السبع أو عين الذئاب أو إلى كل العيون حتى تنفد تلك النقود أو حتى يجدوا أنفسهم في أحد مراكز الشرطة.

المهم أن يتمتع الإنسان حتى ولو دفع الثمن من لحمه ودمه.

وقال العطاوي:

-المهم أنني أتحدث عن الغش في اللعب، لماذا ترينا فلوسك؟ اذهب وأنفقها في أي مكان مع نعجتك، إن الفلوس تحضر وتغيب.

ثم وقف العطاوي، في حين جلس أحمد على التراب، ومضى العطاوي باتجاه الأطفال وهو يدخن سيجارة بعصبية، ترك المجموعة وراءه تستأنف اللعب، وبطبيعة الحال لم يهتم به أحد، فمشادات من هذا النوع تحصل بين لحظة وأخرى، وهم متعوّدون عليها لذلك لم يأبه أحد لغضب العطاوي ولا لغضب أحمد الذي بدا منتصرًا، لكنه قد ينهزم في أي لحظة أخرى، هنا وعلى هذه البقعة بالذات ومن يدري؟ فقد يهزمه العطاوي نفسه عندما يعود. فلعبة النصر أو الهزيمة قد تخضع للحظ رغم حسن التدبير. استمروا في اللعب، وكانت مجموعة أخرى قد تكونت إلى جانبهم، بعض الوجوه مألوفة وأخرى غير مألوفة لكن من يهتم بمن؟ ففي لعبة النصر والهزيمة، لعبة الربح والخسارة عليك أن تهتم بنفسك، غير أن الذي خسر كل شيء في حياته، عفوًا، فقد يكون ربح كل شيء يقف الآن على رؤوس المجموعة الأولى. لم يلتفت إليه أحد، وليس ذلك ضروريًا البتة لأنه ليس مقامرًا غريبًا عابرًا، اختار مكانه وراء ظهر الطاهر وجلس على التراب، كان وحده

يستمع إلى زقزقة العصافير وإلى صراخ الأطفال وإلى هدير محرك سيارة عابر من بعيد، التفت إليه الطاهر:

- هل تغدّيت؟

- ليس بما فيه الكفاية.

- لقد ربحت قليلاً من المال، عندما ننتهي سوف نذهب لنأكل دجاجة مشوية، هل باتت عندك شنيولة أمس؟

- لم أرها منذ أربعة أيام.

- دعني أكمل اللعب معهم.

يشعرون به أو لا يشعرون إلا أنه واحد منهم لا يثير حقد أحد، وفي نفس الوقت لا يحتكمون إليه عندما تقع بينهم مشاكل في الحي.

وفي العمق يحبونه لأن الدولة ظلمته عندما طردته من وظيفته كمعلم لكثرة مخالفته، وهربت زوجته بطفلين لتتزوج يهوديًا أعلن إسلامه ويعمل رئيس قسم في أحد البنوك، هربت زوجته هو الآخر إلى كندا – هذا على حد علمه... كانوا منهمكين في اللعب، وكان المعلم المطرود وحده يستمع لزقزقة العصافير وصراخ الأطفال وشتائمهم، وإلى هدير محركات السيارات ولربما إلى أصوات أخرى آتية من مكان مجهول، كان

يدخّن بصمت ويتأمل وليستبطن بدون خوف من عمق ما يفكر فيه، لقد تعودوه دائمًا صامتًا، لكنه عندما يتكلم يقول أشياء غاية في الخطورة، ومع ذلك فإنهم لا يأخذونه إلى السجن، وهو أحيانًا يفكر مع نفسه لماذا سيأخذونه إلى مكان يسمونه سجنًا، فهو يعيش فيه مع اختلاف بسيط. لم تطل غيبة العطاوي ولكنه عاد ليجلس قرب المعلم موليًا ظهره للمجموعة، لم يتحدث مع المعلم لأن المعلم عوّدهم ألا يتكلم، وهذا لا يمنع من أنه يردّ على الكلام، إلا أن بادرة طرح السؤال لا تأتي منه في أغلب الأحيان، فهو في العادي يكتفي بطرح الأسئلة على نفسه والإجابة عنها رغم أن كل إجابة عنده تولّد سؤالاً آخر وهكذا.

وقال العطاوي:

- هل تغذّيت؟

- ليس بها فيه الكفاية.

وقال في نفسه: «ولماذا نفس السؤال؟» وانتظر سؤالا آخر عن شنيولة لكنه لم يتم.

قال العطاوي:

- أنا لم آكل منذ ليلة أمس، شربت أمس فقط حتى ثقلت مصاريني وليست عندي شهية للأكل على الإطلاق، عندي شهية فقط للذهاب إلى تلك البراريك ومضاجعة امرأة.

-لكنك بدون قوة سوف تموت بين أحضانها.

تأمل العطاوي كلام المعلم وقال إن الحق معه عليه أن يأكل جيدًا ليصبح قويًا مثل بغل وفحلاً مثل ثور. أشعل سيجارة وأخذ ينظر باتجاه الفضاء الفسيح الذي كان ينظر إليه المعلم، كانت هناك سماء وعصافير تتناقر وفكر لماذا ينظر المعلم إلى تلك العصافير المتناقرة، وأراد أن يسأله لكنه تراجع وخاف أن يقول له المعلم كلامًا يُشعره بجهله فكت (يا إلهي! لماذا لم أكمل دراستي؟ ولكن ماذا بعد؟ لقد تعلموا وأصبحوا موظفين مع الدولة، وفي الشركات لكنهم طُردوا. أُغلقت كثير من المعامل والمصانع، أما النساء فقد كان باب الجنة مفتوحًا أمامهن لمن استطعن إلى ذلك سبيلاً، وأما الرجال فقد غرقوا في الوحل حتى الأذنين).

وقال للمعلم:

-لا بدّ أن ألعب ولا بدّ أن أربح.

كان المعلم دائمًا صامتًا ينظر إلى العصافير التي لم تعد تتناقر الآن ولكنها تتفرق وتتباعد ليختفي بعضها، وكرّر العطاوي:

-قلت لك لا بدّ أن ألعب ولا بدّ أن أربح ولا بدّ أن آكل.

قال المعلم:

-كلْ واشربْ حتى تصبح قويًا.

-هل تذهب معي هذا المساء إلى مكان معين لنأكل ونشرب ونصبح قويين؟

لم يُجب المعلم ولم ينتظر منه العطاوي جوابًا لذلك تركه ينظر إلى السماء وانضمّ إلى المجموعة لكي يلعب ويربح، وكان بين حين وآخر يأتي إما راجلاً أو راكبًا على دراجة هوائية أو نارية. لكنه في الغالب لا يقضي وقتًا طويلاً معهم. استمروا في اللعب طويلاً، وكانت مشاداتهم الكلامية لا تنتهي لأنها داخلة في اللعبة، أما هناك بعيدًا عنهم فقد أنهى الأطفال المباراة بشجار عنيف تهشّمت فيه بعض الأنوف وعُطبت فيه بعض الأرجل وتطايرت قطع أحجار فوق الرؤوس، وعلى كل حال فغدًا سوف تتكرر العملية بعد أن تذهب والدة هذا الطفل أو ذاك لتشتكي لأم طفل معتد أو مكذوب عليه، وتُهددها بأن المخزن موجود وحاضر إذا لم تربِّ طفلها لأن الدنيا ليست

سائبة، ينتهي شجار الأطفال في النهار ليبدأ شجار الأطفال في المساء، ويتصالح الأطفال في الصباح في حين تدوم خصومة الكبار لأيام أو لشهور.

وقال المعلم:

-إنهم يلدون مثل الفئران.

لكن أحدًا لم يسمعه وحتى لو رفع صوته بالأذان فإن أحدًا بكل تأكيد لن يسمعه ولن يفهمه لأنهم كذلك ولدوا مثل الفئران ولعبوا الكرة وتشاجروا في طفولتهم وفعلوا أشياء أخرى قبيحة اشتكت أمهاتهم وتصالحن فيما بينهن، منهن من حملن المؤونة إليه في السجن، ومنهن من ذهبن إلى الآخرة وعلى كل حال فالله عظيم الشأن، إذا لم توجد الأم فهناك الأخت أو أية قحبة أخرى، لكن المهم أن يعيش الإنسان بهذه الطريقة أو تلك وقلوب النساء مليئة بالرحمة وواسعة، والعياذ بالله أن يقول المرء إنها أوسع من رحمة الله. لا يهم لقد تشاجر الأطفال وجُرحوا كما جُرح الذين من قبلهم ولسوف يُجرح الذين يأتون من بعدهم، فتلك هي حال الدنيا، تتغير باستمرار. وعلى سبيل المثال فها هو أحمد قد وقف منتفضًا مثل تيس جريح وألقى بنفسه في الحفرة لأنه خسر كل فلوسه. أخذ يتمرغ في التراب وينتف شعره ويبكي، وبالرغم من أنه طويل القامة فقد أخذ يتمرغ في التراب، وبالرغم من أنه طويل القامة

فقد شتم دين أمه، - وأيضًا – دين أمهاتهم. والدنيا هكذا، قد يربح الإنسان فيها وقد يخسر، وقد يُجرح أو يموت أو يقوى أو يضعف أو يتمرغ في التراب فلا يهتم به أحد ولربما وعى أحمد ذلك جيدا، لذلك وقف ونفض عنه التراب ومسح دموعه ومرر أصابعه في شعر رأسه ثم انصرف باتجاه البراريك فقد كان يسكن في حي الصفيح، وقد كان بإمكانه أن يحتل مرآبا هناك لإحدي الدور التي لم يكتمل بناؤها، وهو يعرف بعضها، ويستطيع أن يكسر أقفالها، إلا أنه لم يرضَ بذلك مثلما فعل آخرون، ثم إنه ليس عيبًا أن يسكن الإنسان في براكة، فهي آمن وأفضل إلا في الشتاء. وعندما انصرف أحمد وقف الطاهر نافضًا يديه، بعدما ألقى الأوراق وسط المجموعة عندما خسر الدور، وعندما انسحب إلى الخلف قليلاً، سمع الجيلالي يقول:

-هل ستفعلها أيضًا؟ عليك أن تكمل اللعب معنا، ما هكذا يفعل الرجال، ملأت جيوبك وتحاول أن تنصرف.

وقال الطاهر للمعلم:

-لقد وعدتك بدجاجة مشوية لكننا سوف نحتفل هذه الليلة، على طريقتنا الخاصة.

وقال الجيلالي:

-إنه سوف ينسحب وأنتم لا تقولون شيئًا.

غير أنهم كانوا مشغولين باللعب وعلى آذانهم صمغ أو طين، وكانت النقود تتداول من يد ليد بينما الجيلالي أصبح يتوسل:

-أخي الطاهر أعطني خمسة دراهم سوف أكمل اللعب معهم.

وقال الطاهر للمعلم:

-لا يهم إذا لم تلتقِ بشنيولة في هذه الأيام الأخيرة، هناك نساء كثيرات.

وقال الجيلالي:

-الله يخلي لك أمك العزيزة.

مدّ الطاهرة يده إلى جيبه وألقي إليه ببعض الدراهم دون أن يلتفت إليه فأخذ الجيلالي يلتقطها من الأرض، وقف المعلم ومشى أمام الطاهر فتبعه. الشمس الآن تميل نحو الغروب وتهبّ ريح خفيفة إلا أنها باردة قليلاً، وقال المعلم:

-لقد تزوجت يهوديًا ومعنى هذا أنها كانت لها علاقة به في السابق لا يستطيع أحد أن يعرف ما يدور في رؤوسهن.

قال الطاهر وهو يمشي خلفه:

-لن نأكل فقط دجاجة مشوية ولكننا سوف نشرب حتى الصباح سواء في المرآب الذي تسكنه أو في كل الحانات، إن الحانات أفضل، بعدها تعود إلى المرآب، منذ مدة لم أكل الدجاج، أليس كذلك؟

وقال المعلم:

أنا لا أفهم، إذا كانت لا تحبني فلماذا لم تصارحني بذلك؟ أم أنني أصبحت فقيرًا. كان عليها أن تساعدني حتى أجد لي شغلاً ونربي الطفلين وكل شيء. لقد كان الطفلان سعيدين. لكنها فعلتها.

وقال الطاهر:

-سوف نشرب أولاً عند العربي، وبعد ذلك نذهب إلى عين الذئاب، عندي موعد مع خديجة. ستكون مع الأخريات، لكننا سوف نسكر مع خديجة وحليمة.

وقفا عند حافة الطريق، وكانت سيارات وشاحنات كثيرة تعبر وعندما اجتازا الطريق سوية ولم يعد أحدهما يمشي وراء الآخر، قال المعلم:

- هل ربحت كثيرًا؟

أجاب الطاهر:

- سوف نعيش مثل ملكين هذه الليلة.

- وأين سنقضي هذه الليلة؟

- وماذا كنت أقول لك؟ ألم تكن تسمعني؟ العربي، الحانات، عين الذئاب، خديجة، حليمة.

- آه! ذكرتني بحليمة، إنها تحمل اسم زوجتي، تفو!

3

إنها في الحقيقة ليست صديقتي، رغم أن الناس يعتقدون أنها كذلك. لا بأس أن نسهر معًا هذه الليلة مع الطاهر والمعلم، لقد قضينا ليالي كثيرة مع غرباء، وغالبًا ما كانت تخلق مشاكل فتلقي العقاب من سكير أو من دورية الشرطة. كنت أنجو من ذلك لأن لساني ليس سليطًا، لكن هذا لا يمنع من أنني تعرفت عليها في سيارة للشرطة قبل حوالي أربع سنوات، وقضينا فترة الاعتقال معًا، أحببتها كثيرًا في مركز الشرطة وفي الأيام القليلة التي قضيناها في السجن، لكنها بعد ذلك تغيرت كثيرًا لأنها كانت تكذب رغم أنها تعرف بأنها تكذب، وعيب القحبة هو الكذب والسرقة. أنا لا أكذب ولا أسرق ولذلك

يحبونني كثيرًا، ولو كان المعلم يعرف أنني أكذب وأسرق لما جاء يبحث عني وعنها، ورغم أنه لا يحب اسمها، فهو يذكّره باسم زوجته التي خانته مع يهودي، فأنا قحبة ولا أحب أن أذهب مع اليهود، أعطيه لابن عمي المسلم ولا أعطيه ليهودي، وفي النهاية فلن يأكله سوى الدود، والله سبحانه وتعالى سوف يغفر لي لأنه يعرف أنني سيئة الحظ، وبكل تأكيد فإنه لن يغفر لزوجة المعلم الخائنة، لأن ذلك الرجل ليس فيه أي عيب. وكم تمنيت لو أنه أحبني رغم أنه عاطل، فرجل من ذلك النوع أحسن من كل أثرياء العالم، فأنا أعرف الرجال جيدًا رغم أني أبلغ الثالثة والعشرين فقط، لكن حتى الثالثة والعشرين عمر، ألم أتزوج في العشرين عندما رسبت في الباكالوريا؟ لحسن حظي أني لم أنجب من ذلك الوغد، وها هي حليمة وراء ظهرها الآن طفلان وأحيانًا أقول إن معها الحق عندما تكذب من أجل ذينك الطفلين، فهي مضطرة لكي تدفع مقدارًا من المال يوميًا للمرأة التي تعتني بهما في حي السالمية، وما أكثر النساء اللاتي يرعين أطفال (البنات) في الدار البيضاء، لكنهن لا يرحمن، لقد كنّ في السابق مثلنا، وعندما كبرن أصبحن قاسيات. لقد أعطين كل شيء للرجال، لكن الرجال تخلوا عهن، غير أنه والحق يقال كثير من النساء تخلين عن الكثير من الرجال. وهذا المعلم الجميل الذكي الصامت

تخلت عنه زوجته عن أجل يهودي، ولا أدري عندما يكبر طفلاها ماذا سيقولان عنها، أما حليمة فلا شك في أن طفليها سوف يحبانها عندما يكبران ويمكن أن تكذب عليهما أية كذبة، فكثير من الأمهات كذبن على أبنائهن فصدقوهن واقتنعوا بطهارتهن وأرسلوهن إلى الحج، ثم إن الله يمحو كل الذنوب عندما يثوب الإنسان في نهاية الأمر فيصدق ويصوم ويصلي ويذهب إلى الحج لزيارة قبر الرسول ﷺ وأنا متأكدة أنّ الله سبحانه سوف يغفر لحليمة عندما تكفّ عن الكذب، ويكبر طفلاها وتصبح عاجزة عن الخروج مع الرجال، لأن الرجال لا يحبون إلا الفتيات الصغيرات. صحيح أن المعلم قد لا يكون مثلهم، فهو لا يلهث وراء النساء، وأنا أقرأ في عينيه أنه لم يكن يفعل ذلك حتى قبل أن يُطرد من العمل، وها هو صامت الآن يشرب وينظر إلى الجدار لا إلى النساء، ولا أدري ماذا يدو في رأسه، بينما الطاهر يختفي وسط زحام البار ليعود إلى كأسه ثم يختفي مرة أخرى، ولا أدري ما الذي كان يقوله لحليمة وللمعلم، فأنا لا أسمع شيئًا وسط هذا الضجيج. فالناس لا يستمعون حتى لأم كلثوم، عفوًا... هناك رجل مطرق ربما كان يستمع إليها أو ربما خانته زوجته مثلما فعلت زوجة المعلم، وربما زوجات معلمين آخرين، وزوجات رجال آخرين غير المعلمين. وعلى كل حال فأنا لم أخن زوجي لأنني

أحببته، لكنني خرجت مع رجال كثيرين من بعده. ومع ذلك فقد ظل يحبني وأحبه رغم أنه وغد ولن يعوّضه رجل آخر في حياتي أبدًا، قد أحبّ المعلم، وأنا في الحقيقة أحبه، لكن حبي لزوجي مختلف تمامًا عن حبي للمعلم، وهنا أقع في حيرة تامة لا أدري من الذي يستطيع أن يفهمها، هل يستطيع الإنسان أن يحب اثنين معًا وفي نفس الوقت؟! لكن زوجي يبقى هو الأسمى، إنه نذل، قذر، وغد غير أنه هو الأسمى، إني لا أستطيع العيش معه لكنه سيد الرجال، فحل وكل شيء. وحليمة لا تحب زوجها لكنها تلتقي به في الخفاء ويمارسان ذلك الشيء وأحيانًا أتصور أن ذلك شيء عادي لو أنها كفت عن الكذب واهتمت بالمعلم، وإذا لم تهتم به فإنني أستطيع أن أفعل ذلك مكانها، لكن المعلم الآن كفّ عن صمته، فأراه يتحدث إلى الطاهر ويقول له ما لم أستطع سماعه لأن صوت أم كلثوم أقوى من كل الأصوات وبدأت أشعر بنشوة حقيقية ثم اقتربت من حليمة وهي تقول بصوت مرتفع:

- لا شك أنك سكت. فيم تفكرين؟

- استمع إلى الموسيقى.

-قولي أي شيء، هل تفكرين في زوجك؟

- كل الرجال سواء، لم يعد هناك حب، الحب هو جيبك.

- وأنا ماذا يهمني من كل هذا؟ إنني أحب رجلاً واحدًا رغم أنني لا أستطيع العيش معه، إن ذلك مأساة، تصوري أنه كاد يغرقني في البحر ذات مرة لولا أن أحد أصدقائه أنقذني من بين الأمواج.

- عندما تبدئين في إعادة هذه الأسطوانة التي سمعتها منك مرارًا أتعرف أنك سكرت وأنك سوف تتشاجرين مع إحدى البنات.

وقال المعلم للطاهر:

- من الأفضل ألا نذهب إلى الحي لنكمل السكرة، وأن نشرب في الحانات. فولد الروايس في آخر الليل يمزج الخمرة بالباربا ويضيف إليها الكحول. إن شرابه يستطيع أن يقتل فيلاً.

وقال الطاهر:

- إنني غني هذه الليلة وأنت تعرف أني أحبك لأنك تعلمني الكثير فلنشرب في أي مكان تريده مع هاتين، أطلب ما تشاء ، هل تريد سندويشًا إذا كان بك جوع؟

- ليس الآن.

وقالت حليمة لخديجة:

- قولي له أن يشتري علبتي سجائر أمريكية.

- قوليها له أنت، إن لك لسانًا تنطقين به. غدًا أو بعد غد سوف يصبح مفلسًا، إني أعرفه جيدًا.

كانت الموسيقى هي الطاغية في هذا الضجيج تحت الضوء الباهت للحانة، وكان أناس يدخلون وآخرون يخرجون مترنحين في الغالب، وكان خلف هذا المكان مكان آخر بابه مغلق، لكن موسيقى غريبة كانت تأتي من هناك خافتة جدًا حتى أنها لا تكاد تُسمع، وبين الفينة والأخرى ينفتح ذلك الباب ليدخل شخص أو ليخرج شخص سكران مجرورًا مثل ذبيحة ليلقى به في الشارع حتى يلقى مصيره، بالشكل الذي سوف يُراد له.

ثم أخذت حليمة وخديجة تتحدثان فيما بينهما حديثًا خاصًا لم يكن يهم المعلم ولا الطاهر، ومهما تكن العداوة بين امرأتين في الحانة أو في بيوت اللذة، فإنهما قد تتفقان لو لحظة، وفي تلك اللحظة بالذات وبعدها فليحصل ما يمكنه أن يحصل، تلك قوانين العلاقة |الإنسانية وبالخصوص في ذلك الميدان، أهلاً بك اليوم وإلى اللقاء غدًا، ثم أهلاً بك مرة أخرى ووداعًا إلى الأبد، كانتا تتحدثان وربما في الغالب عن الرجال لأن مشاكلهما الشخصية كانت معروفة وكأن الطاهر لم يكن موجودًا، فهو يختفي ليعود مرة أخرى وكأس الجعة في يده لا

تفارقه إنه يحتاط دائمًا حتى ولو كان سكرانًا مـن أن يـضع لـه أحد قرصًا أو قرصين في الكـأس، لقـد فعلوهـا لـه ذات مـرة فجروه شبه ميت إلى قسم المستعجلات لينظفـوا معدتـه مـن ذلك السم القاتل، وقد شكّ بعد ذلك في أن قحبـة هـي التـي وضعت له الأقراص في الكأس لكنه لم يكن متأكدًا، عـلى كـل حال فعلى الإنسان أن يحتاط حتى من أخيه الذي ولدته له أمـه سواء من أبيه أو من رجل آخر، وقال المعلم:

- أليس كذلك؟

- نعم.

- حتى من أخيه؟

- لكن ماذا تقول؟ هل سكرت؟

- قلت أن يحتاط من أخيه.

-اشرب، اشرب لا بدّ أنك قد سكرت.

وسمع صراخ أنثى في الطرف الآخر من الحانـة الواسـعة خلف الأجسام المتداخلـة مثـل يـوم الحـشر، وكانـت تـسمع كلـمات مثـل عــوك عــوك ديــن أمــك، الحــبس، البــوليس الكوميسارية ولد كذا وكذا، إلى آخر ذلك من شتائم قـاموس الغضب المغربي، ولكن لم يكن أحد ليهتم بـذلك لأن النتيجـة واضحة، فبعد لحظة سـوف يُلقـى بهـا في الـشارع إذا لم تكـن

الأنثى من المشتغلات في الحانة.

وقال الطاهر بصوت مرتفع دون أن يراهما:

- اضرب دين أمها فرقع لها العين.

وقال للنادل وهو يطقطق بكأسه الفارغة فوق الفاصل الخشبي:

- هات أربعة بيرات أخرى.

وقال النادل وهو يفتح الزجاجات متملقًا لزبونه:

- إنهن دائمًا يخلقن المشاكل عمدًا، حتى يتبين في مشاكل وحتى تغلق الحانة فيلقى بنا جميعًا في الشارع، إنهن يستطعن أن يتدبرن أمرهن أما نحن الرجال...

وقال الطاهر للمعلم:

- اسمع المعقول.

وقال المعلم:

- اشرب، اشرب، وأنت ما علاقتك بها؟ هل تعرفها؟ إن بالقرب منك واحدة.

سمعته حليمة ورفعت كأسها وقد بدا عليها العياء لأن الوقت تأخر:

- في صحة الجميع.

ورنّت الكؤوس في فضاء الحانة الذي يملأه الدخان الكثيف، ثم سقطت خديجة من فوق التابوري فاندلقت الكأس على ثيابها لكنها بقيت في يدها دون أن تنكسر، إلا أن يدًا امتدت إليها من الخلف وساعدتها على الوقوف. وقالت:

- صافي! أنا سكرت.

ومع ذلك أفرغت ما تبقى من الزجاجة في كأسها، ضغطت على الزجاجة كما لو ودّت أن تعصرها لكن ضغطها كان واهنًا مرتخيًا وكانت شتائم قاموس الغضب المغربي قد كفّت الآن، ويمكن للمرء أن يتصور ما يمكنه أن يكون قد حصل بعد ذلك، فللحانة أربعة أبواب، اختفى الطاهر مرة أخرى وسط الزحام. تلك كانت عادته عندما يشرب، فهو لا يستقر في مكان واحد أبدًا وغالبًا ما كان تحركه داخل الحانة بذلك الشكل يجلب له مشاكل مع بعض السكارى، قد يكونون أكثر أو أقل نشوة منه. بدت حليمة متعبة جدًا إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تقول للمعلم:

- إن الطاهر غني هذا المساء، فلماذا لا نذهب إلى المجزرة البلدية لنأكل رأس غنم مبخّر؟

وقال خديجة:

- وأنا اشتهيت الطحال المشوي، منذ مدة لم آكله. كان المعلم صامتًا، يشرب وينظر إلى ما حوله في لا مبالاة وكأنه ليس من هذا العالم، إنه يعيش في عالمه الخاص، عالم الطيور والزواج والطلاق والتلاميذ والمساء والتوقف عن العمل وكل شيء، لكزته حليمة وهي تقول:

- ألا تحب رأس الغنم المبخر؟

وجذبته خديجة:

- ألا تحب أكل الطحال المشوي؟ ألا تشرب بيرة أخرى؟

قالتها وهي تتجشأ، وكان مرفقها ينزلق فوق الفاصل الخشبي المبلل، تدارك النادل ذلك، فمسح الفاصل بالخرقة المهترئة التي يضعها في مكان ما بين زجاجات البيرة المرصوفة بانتظام خلف ظهره، قال المعلم للنادل:

- هات أربعة بيرات أخرى.

تصرف كما لو كان ما بجيب الطاهر بجيبه، صحيح أن جيبك هو جيبك وبما أن للطاهر جيبه، فهو بالضرورة جيبه، ثم إن خديجة أعادت:

- قل لي: ألا تحب الطحال المشوي؟

لكنها هذه المرة لم تتجشأ، وقال المعلم القليل الكلام:

- سوف نأكل الطحال المشوي وسوف نأكل رأس الغنم المبخر ولكني أخشى أن يأتي الطاهر بامرأة أخرى، إنه عندما يسكر لا يعرف ما يفعل.

وقالت حليمة:

- لو جاء بأية قحبة أخرى فإني سوف أنتفها، كلنا بنات تسعة أشهر، وهل أنا عايبة؟

لكن الطاهر لم يعد بامرأة أخرى بل عاد بكأس فارغة وهو يتمايل ويغني، وكانت الحانة قد بدأت في طرد السكارى وكثر التصفيق في كل مكان، بعد أن رنّ جرس أول الأمر سكتت الموسيقي وأصبحت الحانة مضاءة. إنها نهاية الساعة، ساعة الفرج العابر أو المستمر أو الدائم، لا أحد يدري وكان غناء الطاهر ثقيلاً بدون وزن مجرد كلمات غير مفهومة، يبدو أنه كان يردد إحدى أغنيات شيخات وادي زم، وقال النادل وهو يتظاهر بمسح الفاصل الخشبي:

-سوف نذهب لننام مع أبنائنا. انتهى الوقت.

قالها بصوت مرتفع دون أن يشعرهم بالإهانة. فهو بحاجة إلى ثلاثة أو أربعة دراهم، ولم يبقَ في الحانة الواسعة العريضة إلا بضعة أفراد يجرّون أقدامهم باحثين عن شيء ما، ثم دخل رجل قصير القامة، وقف عند الباب، بعيدًا عنه بمتر أو مترين.

- هناك سيارة خصوصية، إنها سيارة رجل موظف ومحترم. الثمن ملائم ليست هناك سيارة أجرة الآن.

وقالتا على التوالي:

- أنا أريد أن آكل رأس الغنم المبخر.

- وأنا أريد أن آكل الطحال المشوي.

دفع الطاهر الحساب وهو يتمايل وكانت حليمة تضع يدها تحت إبطه الأيسر، وهما يغادران الحانة، دردش الطاهر قليلاً مع البواب، لم يفهم البواب ما كان يقوله وكان الرجل القصير يصيح:

-تعالوا، إنها سيارة رجل موظف محترم.

لكن شرطيًا خرج من وراء جذع شجرة وهو يمضغ شيئًا في فمه.

- إنها فوضي حقيقية في هذا البلد المسلم. السكر والفساد معًا.

ثم جاء شرطي آخر، لم يقل كلمة واحدة، لكنهما دفعوهم داخل الجيب، أما الرجل القصير فقد بقى بعيدًا ينظر إلى المشهد، وقد فاتت منه فرصة الحصول على بضعة دراهم، ولكن الله رحيم بالجميع سواء بهذه الطريقة أو تلك.

4

الغرفة ضيقة مثل زنزانة مربعة، فيها فراشان ضيقان متقابلان في حين اتكأ صندوق كبير على الجدار الكبير، تضع فيه الضاوية ثيابها وأدوات زينتها، وفي وسط الغرفة مائدة صغيرة قديمة مستديرة اشترتها من بائع خردوات متجول بثمن سهرة ليلة مع رجل عجوز من بني ملال. سكر وتقيأ وبكى، تركته وحده في غرفة الفندق بالمدينة العتيقة وانسحبت لكي لا تخلق لنفسها مشاكل، عندما نام في قيئه وهو يشخر كخنزير ويهذي بكلام لم تكنْ تلتقط منه سوى: «سيري بحالك الحمارة سيري بحالك الخانزة». ولم تكنْ تعرف ما إذا كانت هي المقصودة أم امرأة أخرى حمارة وخانزة بالفعل، كان

فوق المائدة زجاجة نبيذ رديء وفجل وخس وتحت المائدة زجاجات نبيذ أخرى، كانت الضاوية تخرج وتدخل من باب ضيق إلى مكان تُسميه مطبخًا فيه إبريق وكؤوس وثلاثة صحون ومرميطة وقنينة غاز صغيرة. وعندما تدخل لا تنسى أن تشرب جرعة من كأسها ولم يكن أحد يعرف ما الذي كانت تفعله هناك إلا أنها هذه المرة عادت بصحن عليه طماطم وبصل مفصوص، وقال العطاوي:

-اجلسي معنا، نحن جئنا لنشرب لا لكي نأكل.

وقال الهراوي وهو يصب لنفسه:

-اجلسي يا الضاوية.

قالت الضاوية:

-لا بدّ أن أشوي لكما شيئًا من الكفتة.

قال الهراوي:

سوف نأكل فيما بعد، اجلسي معنا.

وقال العطاوي:

-اجلسي:

جرّت الوسادة التي كانت بالقرب من الهراوي وجلست متربعة فوق السرير القصير إذ كان البلاط عاريًا وكم تمنت لو

كان بمقدورها أن تشتري زربية لكانت الآن قد جلست على الأرض مثلما كانت تفعل في بيتها عندما كانت متزوجة. لكن ذلك الزواج أصبح مثل الحلم لأنه لم يدم سوى ستة أشهر، فعمّتها لم تكن تحرمها فقط من الجلوس على الأرض بل كانت تحرمها من أشياء أخرى وتتدخل في كل شيء حتى في الفراش مع زوجها.

-أنت لست امرأة، إنه يخرج مع نساء أخريات وأنت دائمًا نائمة في البيت، يعود سكران في آخر الليل بعد أن يكون قد بذر كل ما في جيوبه.

-يا عمتي إنه رجل وقد علّمتني أمّي أن الزوج عندما يتجاوز عتبة البيت فهو في ملك الأخريات.

-إن أمك حمقاء، أنتن بنات اليوم لا تفهمن شيئًا في الحياة. أنا أكبر منك سنًا، ثم إني أخته الكبيرة.

رشفت جرعة من كأسها وكانت تنظر إلى البلاط العاري الذي تمنت لو كان مغطى بزربية. تنظر في ذهول، في حين كان العطاوي والهراوي يقولان كلامًا لم تدركه على الإطلاق لأنها كانت في عالمها الخاص، لكن الأغنية المنبعثة من الترانزستور والتي لها علاقة بلحظات معينة من حياتها أعادتها إلى جو الغرفة. ثم قالت وعيناها تنظران في الظلام خلف الكوة الضيقة الوحيدة في الغرفة:

-إن الطاهر متعود والبنتان كذلك، لكن ذلك المعلم المسكين ليس له حظ على الإطلاق في هذه الحياة، إنه بكل تأكيد لن يتحمل تلك المهانة.

وقال العطاوي بعد صمت وتأمل:

-وهل هناك إهانة أكثر من أن يوقفوه عن العمل؟

وقال الهراوي:

-كلنا زرنا تلك الأماكن، على المرء أن يتعود وبعد ذلك سوف يصبح الأمر سهلاً، ثم إن قاضي التحقيق سوف يطلق سراحهم بعد يومين أو ثلاثة. لم يفعلوا أي شيء، لقد سكروا فقط.

وقال العطاوي:

-صحيح لم يفعلوا أي شيء، ليسوا مهرّبين ولا لصوصًا ولا بائعي مخدرات حتى يساوموا على أنفسهم فيبتزهم الجميع بالرشاوي، سوف يُطلق سراحهم، نحن نعرف بلدنا والحمد لله.

في هذه الأثناء كانت الأغنية قد انتهت، وكان صوت وراء الميكروفون يتحدث عن إنجازات تمّ تحقيقها وعن وضع الحجر الأساسي لمشاريع كثيرة سوف يتمّ تحقيقها بمناسبة

حلول أحد الأعياد الوطنية التي يحتفل بها العديد من الناس فى أقبية مراكز الشركة لأنهم سكروا ولأن قدرًا كبيرًا من ميزانية الدولة يعتمد على الاتجار في الخمـور في بلـد مسـلم يُحـرّم فيـه الإسلام الخمر. وقالت الضاوية بعد أن أفرغت كأسـها دفعـة واحدة:

-لم أعد أعرف رأسي من رجـلي في هـذا البلـد، فبـدل أن يصبح ذلك المعلم ضـابط شرطـة، يأخذونـه إلى المركـز لأنـه شرب قليلاً، ألا يكفيه ما هو فيه؟ مسكين.

قال العطاوي:

- هذا شيء عادي، سوف يجفف بلاط المحكمة وسـوف يطلقون سراحه، لقد فعلت هذا مرارًا حتى يتعلم أين ومع من سـوف يسـكر، إن سـيارات الـشرطة لا تقـف أمـام الفنـادق الكبرى، وهو لماذا ذهب إلى تلك الحانة القذرة؟

قالت الضاوية:

-هل تمزح؟ إن جيوبه فارغة، لقد كان الطاهر هو الـذي يدفع وربما دفعت خديجة أيضًا فهي تحبه كثيرًا، وقـد قالـت لي الفتاة التي رأت رجال الـشرطة يردفـونهم في الـسيارة إنهـم لم يطلبوا منهم حتى أوراق التعريف.

قال الهراوي:

- حتـى لـو طلبـوا مـنهم أوراق التعريـف، مـا الـذي يـحصل؟ إن التهمة عندهم جاهزة دائـمًا: الـسكر والفساد، وإذا تمّ أدنى احتجاج فـتنضاف هناك تهم أخرى مثـل إهانـة موظف أثناء مزاولة عمله، ألا تعرفين بلدك؟

-كلنا نعرفها والحمد لله – لكن كنت أريد أن أقـول: لـو عرفوا بأنه معلم لأطلقوا سراحه.

-احكي كلامك هذا للحوت في البحر فقد يفهمك.

-إني أعرف مفتشًا للشرطة، سوف أذهـب معـه غـدًا إلى المركز. أعطياني فلوسًا لأشتري له على الأقل سجائر وحليبًـا، لا شكّ في أنه يموت جوعًا هناك. أنا أعرف تلك الأماكن لقد سبق أن زرتها وأنتما تعرفانها أحسن مني.

قال الهراوي:

- يلعن دين أمك، تريدين أن تقولي بأننا مجرمان.

-يلعن دين أمك أنت، اشـتمني أنا ولا تشتم أمـي، أمـي أشرف من أمك، تأكل طعامي في بيتي وتشتم دين أمي، إنـك تعرفني جيدًا.

وقال العطاوي وهو يفرغ لهما:

-كفى شجارًا، يبدو أنكما سكرتما.

وقال الهراوي:

- هل سمعت ما تقول؟ إنها دائمًا هكـذا لـن تتغـير، الله يستر.

قالت الضاوية:

- الله يستر على الأعمى والزحّاف، أما أنا فما أزال أدردك مثل عجلة.

قال الهراوى:

- نعم مثل نعجة.

وقالت الضاوية للعطاوي:

- اسمع.

وقال العطاوي:

- هذا كلام أطفال، حلفت مرارًا بألا أكون معكما أبـدًا، لكن لا أدري ما الذي يصيبني؟

وقال الهراوي:

- أين خبأت علبة سمك التون؟ اذهبي افتحيها وضعيها فوق الطماطم والبصل، إن هذا الشراب الرديء سوف يقطع مصاريننا.

وقال الضاوية:

- أنت الذي اشتريته.

ثم شربت ما تبقى من الكأس دفعة واحدة، وقفت ونشرت ذراعيها في فضاء الغرفة الضيقة وأخذت ترقص بتمايل على وقع أغنية شرقية منبعثة من الترانزستور تردد بعض كلماتها وتنظر إلى السماء المظلمة خلف الكوة كما لو كانت تناجي أحدًا غائبًا، ومن الكوة كانت تهبّ ريح خفيفة، استمرت في الرقص وهي تخطو جهة المطبخ. اختفت وكان صوتها يسمع من وراء الباب وهي تردد كلمات الأغنية.

وقال الهراوي:

- أنا عطي مائة درهم وأنت مائة درهم، ما رأيك؟

قال العطاوي:

- معي سبعون درهمًا فقط، أعطيك خمسين، والباقي سوف أدفعه لك فيما بعد، عندما يخرجون فإن الطاهر سيرد لنا الدين.

- لا يهم، هات الخمسين، سوف أدفع الباقي. إنني لن أنسى خيره كم مرة جاءني بالقفة إلى السجن ولم يطلب مني أي شيء، إنه رجل طيب وشجاع وكان يتمنى أن يكون شخصًا مهمًا إلا أن الظروف لم تساعده، ولذلك فهو يحب

المعلم والمعلم يفهم قوالب هؤلاء الذين يحكمون ولذلك طروده من العمل.

- معك الحق، إنهما يستحقان أكثر. المعلم رجل طيب بالرغم من أنه صامت دائمًا، والطاهر نعرفه جيدًا. أخشى أن تحصل على الفلوس وتسكر بها.

- كأنك لا تعرفها جيدًا.

- إنها أحيانًا تصبح حمقاء ولا تعرف ما تفعل بنفسها.

كانت الأغنية الشرقية ما تزال تتحدث عن الحب والبعث والهجر، وكان صوت الضاوية المحب للبعيد المهاجر يتردد في شبه المطبخ، وبكل تأكيد بعد قليل سوف يدق الجدار جارهم الأعزب في الغرفة المجاورة، فهو يتناول الأقراص ولا ينام بشكل جيد وربما طرق الباب وقال لهم: «إنني أريد أن أنام، عندما تأتي خطيبتي من فاس فإنني لن أسكن هنا أبدًا لكني أهيئ نفسي وسوف يكون لي أبناء، وسوف أكون رئيسًا في مصلحة الأرصاد الجوية». هذا الكلام تحفظه الضاوية عن ظهر قلب، ويحفظه الهراوي والعطاوي والآخرون الذين قد لا يعرفهم الهراوي ولا العطاوي، وعندما فكرت الضاوية في الفاسية رفعت صوتها أكثر، لكن يبدو أن موظف الأرصاد الجوية غير موجود في غرفته ويمكن أن يكون قد ذهب إلى فاس لزيارة خطيبته، وقال الهراوي بصوت مرتفع:

- هل ذلك غناء أم نهيق حمار؟ اتركي الرجل وشأنه.

قال العطاوي:

- هل سكرت؟ عن أي رجل تتحدث؟

- أنا أعرف تلك القحبة جيدًا، تعالي اجلسي معنا، هل تطبخين جملاً؟

وبكل تأكيد فإنها لم تسمع كلامهما، ولكنها استمرت في الغناء وهي تقلب كريات الكفتة في المقلاة وكانت هناك عن يمينها ثلاث بيضات في كل مرة تتناول إحداها وتحركها عند أذنها لكي تتأكد ما إذا لم تكن فاسدة، تفعل ذلك بشكل آلي وهي تقلد الأغنية، في بعض الأحيان تفضل أن تخلط الكفتة مع البيض والطماطم، وأحيانًا أخرى تضيف قليلاً من البصل أو الثوم، لكن الهراوي لا يحب تلك الأكلة بالثوم وهي تعرف ذلك جيدًا، وعندما كانت صغيرة لم تكن تحب الثوم، لكنها عندما كبرت وتزوجت وطلقت وتعرفت على رجال كثيرين، شرح لها أحد الرجال فوائد الثوم، وقال لها بأنه يزيد الوجه نضارة ويحافظ على الشباب ويكثر من الجماع، ومن يومها بدأت تكثر من تناول الثوم، إلا أن الهراوي لا يحب الثوم، لكن لا بأس، فهو نضير الوجه بدون أن يتناول الثوم، ومحافظ على شبابه وفحل في الجماع، لكنه كثير الصراخ، وقد كان يصرخ.

- الضاوية تعالي اجلسي معنا.

- أنا جاية.

وبدأت تكسر البيضة تلو الأخرى متمنية ألا تكون إحداها فاسدة، وعندما كسرت واحدة فوق المقلاة وسال زلالها فوق الكفتة رفعت صوتها بالغناء منتشية لأنها كانت محظوظة ولأن بيضاتها لم تكن فاسدة، ومرة أخرى تقول دون أن يناديها أحد:

-أنا جاية، إني أهيء لك ما سوف تحنجره.

لكن لم يسمعها أحد. تركت المقلاة فوق قنينة الغاز، وعادت إلى الغرفة لتشرب كأسها وهي واقفة في حين كان العطاوي قد فتح زجاجة أخرى وناولها الزجاجة الفارغة دون حتى أن يلتفت إليها، لأنه كان مشغولاً بالاستماع إلى الهراوي الذي كان يحدثه عن مشروع السفر إلى منطقة الشمال لاقتناء سلع مهربة، وقال له بأن الآلات الإلكترونية متوفرة هذه الأيام وبثمن بخس وقال له أيضًا، لكن من أين لهما رأس المال؟ ها هي الفكرة واضحة، لكن الفقير يبقي فقيرًا، وها هو ولد حليمة الذي لم يعد يقامر معهم في الحفرة يكاد أن يصبح غنيًا، ولا شك أنه ذات يوم سوف يغادر الحي ويشتري دارًا و متجرًا في أحد الأحياء الراقية ويتركنا نحن دائمًا في الحفرة.

قال العطاوي:

- إن أمه باعت ذهبها، وأعطته رأس المال وقالت له:

كنْ رجلاً، كيف يعقل أن تذهب النساء إلى الشمال لتهريب السلع وأنت دائمًا في تلك الحفرة يا ولد الفاعلة، شتمت نفسها ولكنها أعطته رأس المال، وأصبح رجلاً.

وقال الهراوي:

- آه! لو وجدت رأس المال لما عدت إلى تلك الحفرة أبدًا، وحتى ما أربحه في القمار يذهب في الخمر، لعنة الله على الخمر. هات، صب كأسًا أخرى.

- وما لك؟ هل أنت مزروب؟ الذين زربوا ذهبوا إلى القبر، ثم إن الليل طويل.

- أريد أن أشرب على حياتي.

جاءت الضاوية ووضعت المقلاة أمامهما وهي تقول:

- قولا باسم الله.

وقال الهراوي وقد بدأ يتعتع قليلاً:

- أنت ما لك تنطين كالقردة.

لكنها لم تعره اهتمامًا وعادت إلى الجحر، شبه المطبخ، لتجلب شيئًا آخر قد يكون فجلاً أو بقدونسًا أو ما لا يمكن

أن يتصوره إنسان. مهما يكن فقد عادت إلى شبه المطبخ ولم تعره أدنى اهتمام. وسواء قال باسم الله أو لم يقل ذلك فإن البيض والكفتة والطماطم والخمرة وكل شيء أمامه، وكذلك البصل المفصوص والترانزستور والكوة والموسيقى والعطاوي. إن كل شيء أمامه عدا الثوم، وماذا يريد أكثر من هذا في هذا العالم، هل يريد أن يقدد؟ ثم قالت وهي تفعل شيئًا ما في المطبخ:

- أنا جاية.

لكنها لم تجئ بعد وقد أكل الهراوي كل ما في المقلاة وحده وهو شبه مغمض العينين في الوقت الذي كان فيه العطاوي مشغولاً بالبحث عن محطة إذاعية أخرى قد تتحدث عن مظاهرات أو انقلابات عسكرية، فهو دائمًا يحب أن تنقلب الأمور دون أن يدري لماذا، وكم تمنى لو انقلبت الأمور لكي يذهب إلى سبتة أو مليلية، ويهرّب من هناك سلعًا يابانية أو حشيشًا أو أي شيء آخر، حتى يتمكن من الخروج من الحفرة، لكن الأمور لا يمكنها أن تنقلب أبدًا ما دام الهراوي قد أتى على المقلاة كلها وانقلب على بطنه الآن وبدأ يصدر زفيرًا وحزاقًا، بينما الأخرى كانت تغني واكتفى العطاوي بتناول قطعة من الطماطم وصبّ لنفسه كأسًا وصاح:

- الضاوية تعالي شوفي صاحبك.

- أنا جاية.

- تجيكي في الرأس، تعالي اشربي كأسًا.

امتلأت الغرفة الآن بالدخان رغم أن الكوة مفتوحة لكن يبدو أن رئاتهم متعودة على امتصاص كل شيء إلى أن تصاب بداء السل، ثم عادت الضاوية وهي تمسح يدها في فوطة صفراء باهتة وقالت وهي تنظر إلى المقلاة:

- لقد أكلتما كل شيء، لكن لا بأس أنا شبعانة.

- أنا لم آكل شيئًا، هو الذي علف المقلاة كلها.

- صب لي كأسًا، أعرفه جيدًا، عندما يتحشش ويشرب فإنه يستطيع أن يأكل خروفًا، لكنه بعد قليل سوف يستيقظ وكأنه لم يأكل ولم يشرب شيئًا.

ثم طبطبت على حنكه وهي تقول:

- ياك الكلب! ياك الخانز! هذه دائمًا هي أفعالك!

أصدر خوارًا وانقلب على جنبه الشمال، وأعطى وجهه للحائط، قبلت قفاه بدون طائل ثم شربت كأسها دفعة واحدة ووقفت ترقص بعد أن حركت زر الترانزستور ليرتفع صوت المغنية، وعندما كانت تحرك عجيزتها أمام العطاوي، كان هذا الأخير يرفع كأسه في وجهها ويمد فخذيها من أعلى إلى

أسفل ومن أسفل إلى أعلى، ثم أمسكت بيديه وأوقفته ليراقصها على صوت الأغنية العبدية، كان صوت الشيخة يأتي من الترانزستور متحشرجًا، فيه ألم وحزن، ويبدو أن الأغنية كانت تعبّر عن حالة حقيقية، وقعت في مكان ببادية عبدة، وقد تكون هذه الأغنية معبّرة عن حالات أخرى مماثلة في تلك المنطقة أو في مناطق أخرى، وعلى كل حال فما يمكن حصوله هنا يمكن حصوله هناك. والأمر ليس جديًا بالقدر الذي يمكن أن يتصوره الإنسان. فهو مجرد قصة حب: يتوله الإنسان ثم يغار فيكره فيبتعد أو يقتل، وتقول الأغنية بأن المحبوب تعلق بواحدة أخرى، وتتكرر هذه اللازمة، لازمة أن نتوله ونغار ونكره ونبتعد أو نقتل و نتعلق بواحدة أخرى، إلا أن جسم الهراوي قد بدأ يتحرك، لكن لا أحد منهما انتبه إليه، وكان الترانزستور ما يزال يبث أغنية أخرى عن الهجرة إلى أوروبا، وقالت الضاوية للعطاوي:

- هل تعرف أنني أحبه كثيرًا؟

قال العطاوي:

- ذاك شأنك.

لم تعد تقدر على الوقوف، واسترخت تمامًا بين ذراعيه كان هو الآخر قد شرب بما فيه الكفاية، وكانا يفعلان مثل

قطين صغيرين يتعاركان ويتنابشان، ثم التفت الساق بالساق، وبدا في الهذيان والشخير، أصبحا جسمًا واحدًا محمومًا. وبعد فترة استيقظ الهراوي بتثاقل وأخذ يدور في الغرفة الضيقة وهو يفرك عينيه ويتثاءب، نظر إليهما وهما متلاحمان يشخران، وبدون شعور امتدت يده إلى زجاجة فارغة وصوّب جهتها وهو يصرخ، لكن أحدًا لم يسمعه، كان الشخير طاغيًا في الغرفة إلى جانب الموسيقى المنبعثة من الترانزستور، اقترب من الضاوية ولكزها في مؤخرتها، فتحت عينيها بصعوبة، ومدّت ذراعها اليسرى إليه، جرّها نحوه إلى السرير الآخر وهو يقول:

- سكرت الخانزة.

قالت:

- آه!

لقد كان الشخير متواصلاً في السرير الآخر، وبعد ذلك لم يحصل أي شيء سوى ما يمكن أن يتصوره الإنسان بعد ليلة مثل هذه.

5

ثم قال المعلم: إنهم قد لا يفهمونني جيدًا. ومن الأفضل ألا يفهموني، فليفهموا أنفسهم أولاً لكن إذا لم أعش في جحر في هذا الحي الخلفي فأين سأعيش. ولو كنت أعرف أنني سأنتهي هكذا لبقيت في فرنسا. عندما كنت أسافر إليها أيام العطل الصيفية، وكنت وقتها أعزب، وقبل أن أصل إلى فرنسا، كانت لي مغامرات مع إسبانيات جميلات. إسبانيا رائعة رغم مضايقات اللصوص والحرس الوطني وسكاكين الغجر، لكن في الجنوب الفرنسي هناك أناس طيبون، كنا ذهب من مختلف الجنسيات لجني العنب من الكروم بثمن بخس

لكنه كان على كل حال كافيًا للمساعدة على قضاء بقية العطلة في باريس، لم نكن نشعر بالتعب على الإطلاق، طيلة النهار، كانت تتوفر لكل واحد منا وجبتا طعام في اليوم وزجاجة نبيذ من الصنع المحلي الجيد، وفي الليل كنا نشعل النيران في الخلاء ونشرب ونرقص ونشوي لحم تلك الفناصيص الصغيرة وكم كان طعمها لذيذًا مع النبيذ والفواكه ولربما – إذا لم تخنّي الذاكرة – فقد كان عدد الفتيات أكثر من عدد الشبان. كنا نرقص في العراء ونختلي ببعضنا في أي مكان، كل واحد مع صديقة، وقد يغيرها أو تنفر منه فتختار شخصًا آخر. لكن الأمر كان عاديًا ومألوفًا وقد تزوج البعض منهم واختفوا باتجاه الجنوب أو الشمال، ولا شك أنهم أنجبوا أطفالاً سوف يكبرون وسوف يجنون العنب ويشربون النبيذ المحلي الجيد، ويشوون الخنانيص ويرقصون ويتعارفون ويتزوجون وينجبون أطفالا آخرين ليفعلوا مثلهم فيما بعد.

إنهم لا يفهمونني جيدًا، ومن الأفضل ألا يفهموني، كما أنهم لا يفهمون الظروف التي يعيش فيها أولئك العمال المهاجرون الذين يبنون هذه الدور في الحي الخلفي، كما أنهم لا يعرفون كما تساوي كل آجرة من حبات العرق. إنني صامت

فعلاً، ليس لأنني لا أعرف ما أقول، ولكني لا أستطيع أن أقول ما أريد قوله، فأي اختيار حر يسبب الطرد من أية جماعة كيفما كانت. إن اليوتوبيا في هذا العالم هي مجرد فكرة فقط، وكم كنت مغفلاً عندما كنت يوتوبيًا، لقد أردت أن أختار فطُردت من العمل، وللأسف ما أزال أصرّ على الاختيار لأني مغفل والمشكلة الأساسية هي أنني أعي ذلك ولم أستطع تجاوزه. إنني أصمت وأعاني، أتأمل تلك العصافير التي تتناقر في الفضاء وأعاني، أسكر وأعاني، أتذكر طفلي وأعاني أكثر. عندي أمل في أن أعود إلى العمل، لأن بعض النقابات تطالب بإعادة المدرّسين المطرودين إلى مناصبهم، وحتى لو عدت إلى عملي، فإني لا أستطيع أن أتصور الحياة الجديدة التي سوف أعيشها، وكيف أربط علاقات أخرى، هل أقدم للناس وردًا وابتسامة، أم نفورًا وكراهية؟! لكن ممن أنفر، وممن أكره؟ لا أدري، عندما يعيدونني إلى الشغل ربما أصبح شخصًا آخر، ولن أطرح على نفسي مثل هذه الأسئلة، وأتمنى أن تكون في يدي دائمًا وردة الدلاي لاما، لكن دون أن أدعي الربوبية. شيء جميل أن يصمت الإنسان، لكن عليه أن يتحدث في الوقت المناسب. وسبب مشاكل الناس أنهم يتحدثون في الوقت غير المناسب، والمغاربة يقولون إن اللسان ما فيه عظم، أي أنك

يمكن أن تقول ما تشاء فتخرب العائلات وتفرق الأصدقاء وتطرد الناس من العمل، وهذا اللسان المغربي الذي ليس به عظم يستطيع أن يملي قرارات يمكنها أن تلقي بنا سواء في الحي الخلفي أو في الزنزانة أو في برشيد، كما كانوا يلقون بهم – أو لا يزالون في سيبريا، أو في مراكز إعادة التربية في الصين لأنهم أرادوا أن يختاروا، وأحيانًا يمكن لمن يختار أن تدوسه دبابة أو يدفن حيًا أو يربط بأغلال أو أن يؤتى بسياق ليقطع رأسه أمام الملأ، فينصرف الناس، بعد أن يكونوا قد شاهدوا ذلك المنظر، إلى المساجد لأداء الصلاة، هذا بطبيعة الحال، في بلدان دين الرحمة والإخاء والتعاطف والمودة والإحسان والخير والعدل ونكران الذات والتسامح والتفاهم وإعطاء كل ذي حق حقه، وبلد عدلْت فنمت (مقتولاً) يا عمر، لأن عينك لم تكن ساهرة، وعلى كل حال فالإنسان لا يمكنه أن يسهر على كل شيء، على العائلة مثلاً أو على الدولة، وعمر بن الخطاب أنهكه السهر بعد أن عدل وذهب ليستريح قليلاً فقتلوه، لكن العناية ارتضته ثم أرضته فأردته، وهذا سوف يحصل لنا جميعًا، والناس يعتقدون أنهم خالدون في هذا العالم، وكلهم يتخوفون مما وراء هذا العالم، إنهم لا يتخوفون على أنفسهم فقط، بل يتخوفون وراءهم وسوف يشمت بهم الآخرون، يا إلهي! ما

جدوى شماتة الآخرين بعد وفاتي؟ إن الإنسان ينفصل عنهم ويذهب لكي يحلق في تلك الآفاق البعيدة التي يبدو أنها رائعة جدًا. وأتمنى ألا يتعجل المكتئبون في فهم فكرة تلك الآفاق البعيدة فهمًا سيئًا فيُقدموا فورًا على الانتحار لأن العالم ما يزال في حاجة إليهم لكي يأكلوا ويشربوا ويتناسلوا ويتآمروا ويتقاتلوا ويكذبوا على بعضهم البعض. أما أنا فآكل وأشرب، وقد تناسلت لأنني مغفل، لكنني لم أفكر قط في أن أتآمر أو أكذب أو أقتتل، ربما لكوني رجلاً مغفلاً، ومن يدري، فقد يكون الآخرون مغفلين، ليست هناك أية مقاييس في هذه الحياة، هناك من يحب الجبال وهناك من يحب البحار وهناك من يحب الخوض في المستنقعات الآسنة، لذلك فضّلت أن أبقى صامتًا ولكن القايد يعرف أنني أتكلم، إنه ينظر إليّ نظرات خاصة تقول بأنه يفهمني جيدًا، أقرأ في عينيه أنه يعرف ما أعاني لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا من أجلي، فهو لا يسلم عليّ، وأنا أعرف لماذا، وأقدّر ذلك جيدًا، إن العيون في كل مكان، ومن الأفضل أن يبتعد عني قبل أن يبتعد عن وظيفته أو يُلقى به في أية جيحة من هذا البلد، حيث لن يتأقلم أبناؤه مع التلاميذ والمدرسين إلا بصعوبة، أما زوجته فلا بأس. إنها في البيت لا أدري كيف تتأقلم مع أثاث بيتها، أو كيف تقلّم

أظافرها، ومن الأفضل لذلك القايد المسكين أن يبتعد عني أو عن طريقي، فهو يعرف جيدًا أنني مطرود، وربما كان يحمل نفس الأفكار التي طُردت من أجلها، إلا أنه لم يستطع أن يختار، ولربما عرف أن في الاختيار صعوبة، هاك حكاية، إذا وُفِّقت في روايتها: ذات مرة وقف خروتشوف أمام ممثلي الشعب السوفيتي لينتقد سياسة ستالين بشدّة، إلا أن صوتًا من ممثلي الشعب قال:

-لماذا لم تقل هذا الكلام وهو حيّ؟

توقف خروتشوف عن الكلام وتوجه إلى ممثلي الشعب في غضب:

-من الذي قال هذه الجملة؟

ظلّ الجميع صامتين أمام غضب السيد الرئيس، ولكي يستأنف خروتشوف نقده لستالين قال:

-إن الذي قال جملته هذه رجل جبان، وأنا أيضًا كنت رجلاً جبانًا في عهد ستالين.

وإذن فالقايد المسكين رجل جبان، ليست له حرية الاختيار، ليست له حرية أن يقول «آح» فيجد نفسه في الشارع وفي الحيّ الخلفي بدون أسرة ولا علبة سجائر ولا عنبة عود

ثقاب، ولحسن الحظ أن في هذا البلد نساء يستطعن أن يتدبرن أمورهن بهذه الطريقة أو تلك فينقذن الرجال ذوي الأكتاف، فالمرأة تستطيع أن تضحي من أجل الرجل إذا أحبته، والحب ليس معناه أن يبقى جسد تلك المرأة لك وحدك، فقد تنام المرأة مع رجال آخرين لكنها في الأصل تنام معك وحدك وهذا ما يحصل لي مع بعض نساء الحي الخلفي، وقد حصل لي كذلك مع سيدة متزوجة كانت تشتم زوجها صباحًا مساءً ولا تزال، إن فضلها عليّ كبير، وعندما أسألها لماذا لا تطلب الطلاق تجيبني دائمًا: «لا أستطيع، وماذا سوف يقول الأولاد، ثم لا تستطيع أن تتحملها لو تزوجنا» وعندما أجيبها: «إنني أستطيع» تقول: «إنك لن تستطيع، ولو استطعت لتحملت أبناءك» ولكنها لم تفهمني على الإطلاق، بالرغم من أنها تقول بأنها تحبني وتستطيع أن تموت من أجلي. عالم غريب حقًّا ولا يستحق إلا أن تصمت فيه إلى أن يحين وقت الكلام. أما متى يتكلم الإنسان، فالجواب عن ذلك صعب جدًا، لأن المسألة مسألة اختيار، وكلمة واحدة تستطيع أن تخرجك من الجنة إلى الأبد، وفي البدء كانت الكلمة التي أخرجت أبانا آدم من الجنة وألقت بأبنائه في الأحياء الخلفية وفي المستشفيات وفي الخنادق وداخل الدبابات والطائرات المقاتلة وآلات الدمار وداخل

الزنزاتات. في البدء كانت الكلمة، ولذلك فضّلت أن أصمت وأنصت لعظامي كما يقول المثل الشعبي، والإنصات خير من الكلام ولذلك أنصت القايد لعظامه، وأنصت آخرون لعظامهم وخيرًا فعلوا. وفي نظرهم طبعًا لكي يأكلوها لقمة باردة. بمعنى أن جسدهم لم يتصبب عرقًا لكي يحصلوا على تلك اللقمة الباردة. أصمت لكي أستمع إلى ضوضاء العالم. هناك أصوات كثيرة لا نستمع إليها جيدًا لأننا نتحدث كثيرًا، وعندما يثرثر الفم كثيرًا فإنه لا يعطي الفرصة للأذن لكي تسمع جيدًا. وأنا أعتقد أن الإنصات أحسن من الكلام. وبالرغم من أن الكلمة كانت في البدء فإني أعتقد أن الإنصات كان هو الأبد. صمت كبير وشامل، يبعث الراحة ويعطي فرصة للتأمل. قبل الكلمة لم تكن هناك وزوزة الفئران ولا طنين الذباب ولا أصوات المدافع ولا مفرقعات عاشوراء. كان هناك صمت أبدي مثل صمت الأموات. ولذلك فضّل أن يصمت القايد على زبايله للآخرين الذين يعتقدون أنهم يخفونها في حفر لا تراها الأعين ولا تدركها الأبصار.

إنهم لا يفهمونني، وهذا شيء جميل، ومن الأفضل ألا يحاول الإنسان أن يفهمك، بدل أن يفهموك خطأ. ومن الأفضل ألا يتكلم الإنسان كثيرًا حتى لا يؤول كلامه، لأن

بعض الآذان لا تلتقط إلا ما تريد سماعه، لقد قلت ذات مرة لأحد الأشخاص، وكان معلمًا مثلي (لم يطرد لحسن حظه): «شيء جميل أن تشم تلك الوردة التي في يدك» فأجابني غاضبًا: «ماذا تقول؟ هل أشم بعرة؟ البعرة هي أمك». وكاد أن يضربني لأن أذنيه كانتا طويلتين ورغم أنهما طويلتان فإنهما لم تلتقطا كلمة وردة والتقطتا كلمة بعرة، وكنا سنقع في مشكلة وقد نتشاجر ونقدم إلى المجلس التأديبي أو إلى مركز الشرطة أو إلى المحكمة من أجل وردة وبعرة، وقد لا تلتقط آذان أعضاء المجلس التأديبي أو قاضي التحقيق حروف كلمتي وردة وبعرة، فتصبح المشكلة أعوص. ولذلك فضّلت ألا أتحدث كثيرًا. صحيح أنه في البدء كانت الكلمة ولكن الإنصات كان أولاً. تلك المرأة قالت بأن زوجتي ذهبت مع يهودي أعلن إسلامه، لكنها لا تفهم حقيقة ما يجري، فكثير من اليهوديات المغربيات تزوجن بمسلمين مغاربة وأنجبن منهم أطفالاً كبروا، وهربن إلى فلسطين لكن الأفظع مع ذلك، أن الأبناء ضربوا العرب في عام 1967 وظلّ الآباء المغربة المسلمون يسكرون في الحانات من جراء الفقسة والغدايد لأنهم أنجبوا أبناء يقتلون أبناء عمومتهم ولأنهم تزوجوا بيهوديات كانوا يعتقدون أنهن مخلصات وفيات للسيد المسلم.

لكنهم لم يكونوا يعرفون بأن اليهودي يبقى يهوديًا، واليهودية تبقى يهودية، اسأل موسى أو عيسى عليهما السلام. لست ضد أي كائن بشري ولكن عليكم السلام جميعًا. تركتني زوجتي، هذا غير مهم على الإطلاق، ومع يهودي مغربي فهذا لا يهمني كذلك. الجنس هو الجنس في كل مكان من أنحاء هذا العالم، لكن الألفة هي سبب كل المشاكل في العلاقات الإنسانية بين الرجل والمرأة. وقد يستطيع الإنسان أن يلف قطًا أو فأرًا أو ذئبًا أو قردًا أو كلبًا أو ذبابة أو أية خانزة أو خانز في هذا الوجود. تلك مشكلة البشرية جمعاء وإن كانت تتظاهر بغير ذلك. إن هذا الرجل الذي يملك سيارة كبيرة وفيلا واسعة عريضة فيها خدم وحشم إذا كانوا يحشمون على فعايلهم بالفعل، يعتقد أنهم ينظرون إليه كرب الأرباب – معاذ الله – في حين أن يعيش نفسيًا حياة لا يمكن أن توصف على الإطلاق، ولا يستطيع أي محلل نفسي أن يختبرها، وهكذا فاليهودي واليهودية يظلان صامتين زمنًا طويلاً إلى أن يأتي يهودي فينجب من امرأة مسيحية ولدًا لقيطًا اسمه هتلر استطاع أن يخرّب العالم. في البدء كانت الكلمة ولكن عليّ أن أكفّ عن الثرثرة، هناك كلام كثير يمكن أن يقال، ولكن هناك أيضًا عصافير تزقزق وشاحنات تهدر وموسيقى في الحانات

وخُطب في المساجد وأخرى في التليفزيون، وكلام كثير في الكتب مثل هذا الكتاب الذي أتحدث من خلاله. شيء جميل أن تُتاح لك فرصة التعبير عن نفسك سواء في المدرسة أو الجامعة أو المسجد أو حتى في الحيّ الخلفي، وعلى المرء أن يعبّر عن نفسه متى سُمح له بذلك، لكن أحيانًا يكون الصمت حكمة كما قال العرب المقموعون منذ زمن طويل، هناك أشياء كثيرة يجب أن تُقال، ومن الأفضل أن أصمت وأستريح.

– خديجة ، حليمة، كريطة: أين كأسي؟

– منذ وقت طويل وأنت صامت لا تتحدث كأنك لست موجودًا معنا.

– آه! عفوًا اسمحي لي لقد كنت أفكر في أشياء.

– هل كنت تفكر فيها مرة أخرى، إنني أفهمك يبدو أنها سحرت لك، انسها وأبدأ حياتك من جديد.

– لا، أنا لا أفكر فيها.

– وإذن أنت تفكر في سبب طردك من العمل.

– سوف تعود إلى عملك إن شاء الله، أشرب في صحتك، إن الأعمار قصيرة، أعطه شيئًا لكي يأكله، إنه لم يأكل هذا اليوم إنه يشرب فقط ولا يتحدث، رفعت الكأس في وجهه وقالت:

- إن الذي يشرب ولا يتكلم فإنـه يقتـل نفـسه، لا تقتـل نفـسك.

صمت المعلم ولم يقل شيئًا وتجرّع كأسه دفعة واحدة.

6

«الصفعة»

- لماذا توقفت هنا؟ من تكون هذه القحبة؟ ولماذا وقفت بسيارتك أمام مركز الشرطة؟ هل تريد أن تُلقي قنبلة؟ من تكون هذه القحبة؟ هات أوراقك، ماذا تعمل بالضبط؟

لم أفهم بالضبط ماذا يُقال لي! ارتجفت وخجلت من نفسي، أذكر أنني قلت وأنا في حالة خاصة جدًا لا أستطيع أن أصفها لحد الآن:

- إنني أستاذ يا سيدي.

- فقيه ومعك قحبة، ألا تخجل من نفسك يا ابن الكلبة؟

- سيدي إنها زوجتي.

- هات عقد النكاح.

- لا يمكن يا سيدي لأي متزوج أن يحمل معه عقد النكاح، خرجت مع زوجتي لكي نتناقش بعيدًا عن العائلة، هذا قد يحصل لنا جميعًا.

- قد يحصل لأمك ولتريكة. أمك، أنا لم يحصل لي هذا على الإطلاق، بناتي متزوجات بخير، أفضل من تريكة أمك، انزل.

وعندما نزلت أشبعني لكمًا ورفسًا وقال ما لا أستطيع أن أصفه، إلى أن تخليت عن التدريس واجتزت مباراة للالتحاق بأكاديمية في مدينة القنيطرة لكي أتخرج قائدًا وأصبحت أحكم مقاطعة تضم حيًا خلفيًا يسكنه شحاذون ولصوص ومعلم مطرود لأنه أراد أن يختار. إني أعرف كل الأشياء عن هذا الحيّ، وصمتي أكثر من صمت المعلم المطرود، إنني أفهمه لأنني اشتغلت بالتدريس قبل أن أصبح قائدًا لهذه المقاطعة، عندما كنت صبيًا اشتغلت مع أخي الأكبر كمتعلم في حانوته، وكنت استيقظ في الصباح الباكر، عند آذان الفجر بالضبط. وكم لكزني ونهرني السكارى، لكنها كانت حياة أليفة مع

ذلـك، وظللـت صـامتًا إلى أن تعلمـت وتخرجـت أسـتاذًا، وصفعني الشرطي وقال لي انزل ومن تكون هذه القحبة فقـال لي دماغي، اجتز المباراة والتحق بالأكاديمية لكي تصفع أناسًـا آخـرين، لكنـي، - والله يـشهد عـليّ، لم أصـفع إلا الـذين يـستحقون الـصفع، وأحيانًـا لا أصـفع بيـدي ولكـن بأيـدي الآخرين، أقصد الأعوان والمخازنية، لأنني ما أزال أتذكر تلك الصفعات التي تلقيتها من أخي الأكبر وأنا صغير والصفعات التي تلقيتها في الشارع، لكن تلك الصفعة التي قررت مصيري لن أنساها على الإطلاق، كما أنني لا أسـتطيع أن أنـسى ذلـك الوشم على أرنبة أنف ذلك الشرطي العجوز الذي زوّج بناتـه واستراح وخرج ليصفع أستاذًا داخـل سـيارته مـع زوجتـه في شارع ما من الحيّ الحـسني. ولم يكن ذلك الأستاذ المـسكين إلا رجلاً كتومًا خجولاً لا يـستطيع أن يواجه زوجته أمام العائلة. لكن الصفعة أحيانًا توقظ الساهي، فالنـاس يـسهون حتـى في الصلاة أمام ربّهم، وقد نزل عليهم الويل في القرآن الكريم. أما أنا فقد أنزلت عليّ تلك الصفعة ويلاً ورحمة في نفـس الوقـت، ولا أدري كم يتلقى الناس من الصفعات في الحياة، سواء على الوجه أو القفا. لكنـي أعتقـد أن صـفعة واحـدة كافيـة لكـي يلتفت الإنسان إلى ما حواليه، والذين يتلقـون الـصفعات ولا

يلتفتون شمالاً أو يمينا هم أصحاب السلطة الكبار، لأنهم أحيانًا يعتقدون أن تلك الصفعات هي مجرد هبة ريح. إنني أصمت لأنني في السلطة، أو على الأصح أنا جهاز للسلطة، وليفعل المعلم ما يشاء .. فليصمت ما شاء له أن يصمت. وإذا ما أُتيحت له الفرصة لكي يتحدث، فإني سوف أضع قطنًا على أذنيّ. مسكين بئيس! يبدو أنني لست أبأس منه. أحيانًا أتصوره حرًا أفضل مني، أحسن الاختيار وعندما أتذكر الأطفال أقول في نفسي إنه لم يُحسن الاختيار. تلك الحياة جميلة بدون أطفال، وبدون صفعة شرطي موشوم الأنف زوّج بناته بخير واستراح، لكنهن بكل تأكيد لا يعشن بخير، ولا شك أن كل واحدة من بناته تقحب في حارة وزوجها يقحب في حارة أخرى، وقد يكون الآن قد ركّب طاقم أسنان ووضع نظارتين على عينيه وجلس على رصيف مقهى ليشاهد رُكَبَ وأفخاذ فتيات الثانويات بعد أن أصبح عاجزًا جنسيًا، ونسي كل الصفعات التي كَالها للآخرين. طاقم الأسنان والصفعة هي كل ما يمكنه أن يحتفظ به. يأتون من الشمال أو الجنوب بسلع مُهرَّبة؛ هذا لا يهمني على الإطلاق، فمن حقّهم أن يعيشوا. لقد هَرَّب الأغنياء أموالهم إلى الخارج، وكذلك فعل رجال السياسة رغم أنهم يخطبون بشكل جيد ويحرّضون العامة حتى

يصوّتوا عليهم في الانتخابات، وأنا لست سوى شخص منفذ للأوامر وخصوصًا في تلك الأمور السياسية. إذا ما طُلب مني تزوير الانتخابات؛ فما عليّ إلا أن أفعل، وإذا ما طُلب الحرص على النزاهة؛ فما عليّ إلا أن أفعل، لأنني لا أريد أن أصفع مرة أخرى، وأنا ربّ عائلة، وإذا ما صفعت فلمن أترك هؤلاء الأبناء الصغار زغب الحواصل. هل أتركهم للماء والحجر ويا حبّذا لو تركتهم للشجر يقتاتون من فواكهه ويتدفأون بأعواده. إن الصمت جميل، وكثير من رجال السلطة يثرثرون كثيرًا، وما تجني عليهم كلماتهم ويُجرّون من ألسنتهم الطويلة ويَجرّون معهم آخرين أبرياء. كم من رئيس دولة قُتل أو فرّ مع أتباعه، لأنه يتحدث كثيرًا ولا يزن كلماته؛ خصوصًا إذا كان يرتجل خطبه وليس هناك من يُنمق أفكاره ويراجعها. إن الكلمة مسؤولية وقد تُخرّب شعبًا وتؤدي به إلى ما نراه اليوم في أنحاء العالم. على كل حال، أنا رجل مصفوع على قفاه ولذلك طأطأت رأسي وأغمضت عيني. إن أولئك الناس الذين يهربون أو يقحبون ما هم إلا مجرد مساكين، ولكي تعيش لا بدّ أن تفعل أي شيء: أن يلكزك السكاري عند الفجر وأنت صبي، أو أن تصبح قايدًا لمقاطعة في حي خلفي، لكن عليك أن تصمت دائمًا وإلا أصبحت شماتة مثل المعلم الذي اختار

وتحدث فجُرّ من تلابيبه ولسانه إلى الحيّ الخلفي، مسكين! لا بأس! أعتقد أن مشكلته سوف تُحل ذات يوم: فالنقابات تتحدث كل يوم عن أمثاله، ويبدو أنني أتحدث في السياسة وهذا شيء ليس من حقي على الإطلاق، لكنني أتحدث من خلال قصة، وهذه بالنسبة لي فرصة مهمة لا يسمح لي بها التليفزيون أو الإذاعة لأنني قائد، وأحيانًا أصبح قوّادًا عندما تنعقد بعض المؤتمرات في بلادنا، لكن ذلك عمل والعمل ليس عيبًا كيفما كان، المهم أن يتدبر الإنسان أمر عيشه بهذه الطريقة أو تلك، سواء كان وحيدًا أو كان يجرّ وراءه قافلة من الكسالى المتعبين من أسرته، والذين حتى ولو سعيت لإيجاد شغل لهم، فإنهم يفضّلون النوم حتى الساعة الثانية بعد الظهر ومع ذلك فإنهم ينفخون أشداقهم وأكتافهم ويقلبون الصحون في وجوه أمهاتهم وأخواتهم وهم يصرخون: «ما هذا الأكل؟ حتى الكلب يعاف هذا الطعام». وبحكم مهنتي، فأنا أعرف هذا النوع جيدًا، وكثيرًا ما تقدموا لي بطلب جواز سفر بحصلوا علي بالفعل. وعندما يسافرون إلى أوروبا، فإنهم يعودون فورًا لأنهم لا يستطيعون أن يشتغلوا، كل واحد منهم يعتقد أنه عُيّن سفيرًا. هناك، ما إن يبلغ الشاب سنًا معينة حتى يعتمد على نفسه، حتى وجبة غذاء يتقاسم دفع ثمنها الإبن والأب، أما

أصحاب الأكتاف وذوات الأرداف عندنا فأمرهم غريب. وربما تكون ذوات الأرداف أفضل من ذوي الأكتاف، إنني أعيش هذه الحالات يوميًا وأنا لا أتحدث من فراغ، وأحيانًا أقول في نفسي بأنني لم أسيء اختيار هذه المهنة. لقد قربتني أكثر من ذوات الأرداف ومن ذوي الأكتاف، كان عليّ ألا أتحدث بهذا الشكل. وما دامت الفرصة قد أُتيحت لي، فلم لا أتكلم؟ إن وَقْعَ الصفعة ما يزال يُنبهني إلى أشياء كثيرة قد لا أستطيع أن أتحدث عنها، لكن قد يُتاح لي أو لغيري الحديث في مثل تلك الأمور الخفية المستورة بثوب شفّاف مثلاً. أنا أعرف ما يفعله الأعوان من ارتشاء وابتزاز للمواطنين سواء في الحي الخلفي أو في الأحياء الأخرى، لكنني أستر كل ذلك بثوب شفّاف، إنهم يعيشون والآخرون كذلك يعيشون وأنا أيضًا أعيش، والمعلم المطرود يعيش كذلك معهم. هكذا نعيش جميعًا وراء ستار شفاف، الكل يعرف كيف نعيش جميعًا وراء هذا الستار، وعندما يحاول أي شخص أن يُزيل ذلك الستار فإنه يطرد فورًا من جماعة لعبة الستار تلك «كل ووكل» هذا ما يقوله مثلنا الشعبي. والحمد لله؛ فكل المغاربة يأكلون حتى ولو كان الأمر يتعلق بالخبز والشاي، ونحن لسنا مثل بعض الدول التي يأكل مواطنوها الحشرات. إننا نقرأ في الصحف ما يحصل

في بعض دول أمريكا اللاتينية، وآسيا وإفريقيا، لكـن المغـرب جميل، وما يعوزه هو أن تكال لكل واحد منا صفعة، سواء على خده أو عـلى قفـاه، لقـد تلقيـت الـصفعة وأنـا الآن أحمـد الله وأشكره. لست نادمًا على شيء، لكن الوطن يبقى هو الوطن، وإن كنت للأسف عاجزًا عن الصفع، فهناك من يـصفع نيابـة عني.

7

يسود الظلام الآن في هذا الوقت المتأخر من الليل. ظلام كثيف حقًا. ورغم أن الأمطار غزيرة والوقت متأخر فقد كانت هناك نافذة ما زالت مشرعة، لكن من الجانب الغربي الذي لا يمكن أن تتسرب منه قطرات المطر. في الصيف الماضي، وفي مثل هذا الوقت، كانت كل النوافذ مضاءة ومشرعة. لقد عاد المهاجرون ليستكملوا البناء وليستخلصوا الكراء. وذهب الغزاة إلى البادية ليتفقدوا حصادهم أو مواشيهم، ومنهم من ركن إلى حيّ الصفيح المجاور ليتسول بأبنائه أو لكي يكتري أبناء جيرانه بعد أن يلطخ أوجههم

ويلبـهم أسمالاً، وغالبًا مـا كـان الأطفـال في حـيّ الـصفيح يرتدون الأسمال. في هذا الوقت المتأخر من الليل لم ينزل القايد من السيارة، وأمر السائق باختراق الطرقـات التـي تـمّ تعبيـد بعضها خلال هذه الشهور الأخيرة بعد أن نبّـه إلى ذلـك أحـد المراسلين المتجولين في إحدى الصحف. والقايد يعرف جيـدًا أن أي مراسل متجول ما هو إلا معلم أو أستاذ في مكان ما من أنحاء المملكة ينتمي إلى هذا الحـزب أو ذاك، ويظـل مراسـلاً متجولاً إلى أن يضايق السلطات المحلية فيـتم نقلـه إلى مدينتـه حتى يقترب من العائلة فيتزوج وينجـب ويكمل بنـاء الطـابق العلوي، ويصمت ويتنكر للمبادئ. ولـو أن الظـروف بقيـت كما كانت عليه قبل عشرين سنة لاجتاز المراسل المتجول مباراة الدخول إلى إحدى المدارس أو المعاهد ليتخرج ضابط شرطـة أو قائدًا. والقايد يعرف كل هذا. ولذلك فهو صامت بعـد أن أصبح قائدًا، ولو كانت له علاقات لأصبح قائدًا ممتازًا أو ربما محافظًا، لكنه من عائلة مقطوعة الجـذور ومتـزوج مـن عائلـة مقطوعة الجذور كذلك. ولم يفكر أول الأمر قبل الزواج، فقـد تزوج من امرأة كانت تنظر دئـمًا إلى الأرض. وكـان يعتقـد أن ذلك من علامات الحشمة والحياء، وبالفعـل فهـي كـذلك إلا أنها أصيبت بالربو عندما أغلق عليها البيـت والنوافـذ. لكـن

الآن يقترب من تلك النافذة الوحيدة المشرعة في نهاية الليل تحت المطر. تسير السيارة ببطء وأحيانًا تهتز تحت حفرة أو قطعة حجر. فالدروب لم تعبّد جيدًا على ما يبدو، لأن المراسل المتجول ربما لم يكتب مقالته بشكل جيد أو ربما قام محرر صفحة الشؤون الاجتماعية بحذف بعض الفقرات أو الجمل. وقد يحصل أحيانًا ألا تنتبه السلطات إلى تلك المراسلات، وقد تُهملها أو تعتقد المراسل المتجول فتسجنه أو تجلده. لكن بعض المراسلين المتجولين يستمرون في عنادهم ومشاكستهم إلى أن يُصبحوا أعضاء في المجالس القروية أو الحضرية. أو حتى أعضاء في البرلمان. القايد يعرف كل هذا ويعرف غيره، ولذلك فهو يفضل الصمت ومن يدري؟ فقد يصبح ذلك المعلم الصامت ذات يوم عضوًا في البرلمان أو حتى وزيرًا للداخلية. القايد يعرف أن كل هذا قد يحصل سواء في المملكة أو خارجها. وقد يصبح عاملٌ في ورشة رئيسًا للجمهورية، أو يصبح ممثل من الدرجة العاشرة رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، وقد تصبح راقصة في ملهى رئيسة للدولة، والقايد يعرف جيدًا أن التاريخ يخلق المفاجآت، ولذلك فضّل أن يصمت دائمًا، إلا أنه يتحدث في الوقت اللازم. وفي مثل هذا الوقت اللازم قال السائق:

- يمكنك أن تتوقف الآن قليلاً، حتى تلتحق بنا السيارتان.

قال السائق:

- أمرك يا سيدي.

- يمكنك أن تدخن وأن تشعل لي سيجارة.

- حاضر يا سيدي.

- ويمكنك أن تنزل لتبوّل قرب الجدار، رغم أن المطر يهطل بغزارة. ورغم أن السائق لم يكن يشعر بالرغبة في ذلك، فقد قال:

- أريد ألا أراك وأنت تبوّل.

- حاضر يا سيدي.

كان يردد «حاضر يا سيدي» مثل ببغاء وهو يشغل السيارة للقايد، ويشعل لنفسه رغم أنه لم يكن يريد أن يدخن. وعندما أشعل سيجارته بدأ [illegible] نطله نه

فقال القايد:

- ماذا تفعل أيها الحمار؟ هل تريد أن تبوّل في السيارة؟

فتح السائق الباب بسرعة وبخوف وقال:

- عفوك يا سيدي!

ثم ركض تحت المطر حتى أنه كاد أن يتعثر فيسقط. اختفى لحظة، وكانت السيارتان الأخريان قد التحقتا بسيارة القائد. نزل أحد ضباط المخازنية وأطلّ على القائد وهو يعالج قبعته تحت المطر:

- ياك لا باس يا سيدي! إن النافذة لا تزال مشرعة مضاءة، نتمنى أن تكون الوشاية كاذبة.

- لات بأس! إنه الواجب. إننا نقوم بتنفيذ الأوامر فقط.

وأضاف القايد للضابط بعد أن فتح له الباب:

-تعال اجلس بجانبي، المطر غزير. نحن صديقان قبل كل شيء. أنا لست رئيسك وأنت لست مرؤوسي، إننا نقوم بالواجب وكفى، وهناك أشياء يجب أن تحترم.

نزع الضابط قبعته ونفضها بين ركبتيه وقال:

- كل ما تقوله سيدي صحيح. لقد علمتنا أن الواجب فوق كل شيء وأتمنى أن تكون الوشاية كاذبة. ثم إن المعلم لا يستطيع أن يفعلها. ولا يمكن لرجل يخفي سلاحًا ومناشير،

أن يترك النافذة مضاءة ومشرعة في مثل هذا الحيّ الخلفي الذي لا يسكنه سوى أناس أنتم أدرى منّا بهم.

قال القائد:

- اذهب وابحث عن السائق، لقد تأخر.

قال الضابط:

-أمرك يا سيدي.

وما إن فتح الباب حتى رأى السائق يركض تحت المطر تجاه السيارة. وقال السائق للقائد:

-العفو يا سيدي إذا كنت قد تأخرت قليلاً، لقد ضربني بعض السكارى بقطعة حجر على ظهري وكانت معهم واحدة، فتبعتهم إلا أنهم اختفوا تحت المطر في الظلام داخل زقاق ضيق يؤدى إلى زقاق أضيق.

قال القائد:

- اركب – اركب.

وركب السائق، ثم عاد الضابط إلى سيارته، وتقدمت السيارات بتثاقل، لأن الروية كانت مستعصية، وماسحات الزجاجات لم تكن لها فاعلية أمام غزارة المطر. ومع ذلك، فقد

كان ضوء النافذة واضحًا، لأنه الضوء الوحيد الذي يُرى عن قرب أو عن بُعد. فكل أضواء النوافذ مطفأة. وفكّر القائد إنهم يعرفون كل شيء ولذلك أطفأوا الأضواء. لكنه لم يفهم على الإطلاق فكرة أن يخفي المعلم سلاحًا في ذلك البيت بالضبط. والقائد يعرف جيدًا بأنه بيت لامرأة تشتغل بكل شيء إلا إخفاء السلاح. وحتى ولو أخفت سلاحًا ما، فهي لا علاقة لها بأي شيء آخر. وكانت السيارات الثلاث تقترب وتتدحرج أحيانًا. غير أن شبحًا مرّ بسرعة أمام سيارة القائد واختفى في الظلام. لكن ذلك لم يثر أي مخزني لكي ينقض عليه كالعادة من السيارة ربما لأن الجو كان ممطرًا والوقت متأخرًا وفوق هذا، فالذي يخاف ينجو بنفسه.

ثم خرج السائق عن صمته عندما اقتربوا من النافذة المضاءة، ولأول مرة أو لآخر مرة يتشجع على قائده:

- اسمح لي يا سيدي، أعرف المهمة التي جئنا، عفوًا جئتم من أجلها، لا أعتقد أن المعلم يفعل ذلك.

سكت القائد لحظة، وليس من عادته الصمت عند إبداء الملاحظات، لكنه قال وبكل وضوح:

- متفق معه. سوف نرى لكننا نقوم بالواجب، إنها الأوامر.

- أعرف سيدي، ذلك شغلك، عفوًا إنه شغلنا جميعًا نحن نحافظ على أمن الدولة.

-لقد علمتكم ذلك. إننا نحافظ على أمن الدولة، لكن آن لك أن تسكت .. لقد اقتربنا، ويمكنك أن تتوقف الآن وتنزل وتقول للمخازنية بأن ينزلوا وأن يطوقوا العمارة.

توقف السائق بالفعل ونزل ثم ذهب إلى المخازنية في السيارتين الأخريين تحت المطر. كان القائد يتحسس مسدسه ويشدّ حزامه ويضغط على قبعته فوق رأسه ويفكر في أن المعلم لا يستطيع أن يفعله. وهذا الحيّ الخلفي لا يمكنه أن يخفي سلاحًا. ومتى أخفى السلاح في الأحياء الخلفية؟ حصل ذلك قبل الاستقلال، وسنة 1965، عندما كان يقفز شخص اسمه شيخ العرب، ضبط وهو ينط فوق السطوح مثل قرد. لقد أراد أن يقوم بثورة في البلاد، أو على الأقل في الدار البيضاء، وكان يعتقد أن الأمور سائبة وأن عين الدولة غافية. وفكر القائد أن المعلم لا يستطيع أن يفعل فهو رجل ذكي، وبكل تأكيد فإنه ليس شبيهًا بأولئك الرجال الذين وضعوا قنبلة في علبة تجرّها دراجة وقتلت فرنسيين أبرياء كانوا يدافعون عن استقلال

المغرب. إن المعلم ليس غبيًا إلى هذا الحد. ولا يمكنه أن يفعل ذلك بتاتًا. ولا يمكنه أن يفعل ذلك في الحيّ الخلفي، في حيّ القائد الصامت الساكت على همزته أو على خبزته. إن الأمور كلها تسير على ما يرام في هذا الحيّ. قلّما يزور الحيّ رجل رفيع المستوى، لكن الأمور تسير على ما يرام مثلما تسير مياه بركة آسنة، مثلما تتموج مياه بركة كبيرة أخرى آسنة اسمها لا يستطيع القائد أن يذكره. إلا أن المعلم لا يستطيع أن يفعلها لكن من يدري؟ فهم في الدول المجاورة والأكثر تخلفًا يلقون بالقنابل ويهاجمون قصور الرؤساء ويطردون الوزراء أو يشنقونهم. والمعلم الصامت قد لا يفعلها، لكن الساكت حجته معه.

كان القائد يفكر في الذي قد يحصل لو أنهم بالفعل ضبطوا سلاحًا في تلك الغرفة ذات النافذة المضاءة. وأحسّ بأنه قد تخلى عن مهمته العسكرية. لذلك فتح الباب بسرعة ونزل يجري تحت المطر وهو يتحسس مسدسه. نسي كل ما تعلمه في الأكاديمية. لأنه لم يجد نفسه على الإطلاق أمام امتحان مثل هذا. وعندما رآه أحد المخازنية الذي كان مصوبًا بندقيته تجاه النافذة قال له:

- سيدي القائد، المطر غزير، تعال خلفي وراء السقيفة.

نفض القائد قبعته، توقف قليلاً وهو يلهث، ثم قال للمخزني.

- اتركني لأرى ما سيقع.

ثم جرى مرة ثانية نحو مخزني آخر، وقال له بغضب:

- اسمع، اصعد أنت ورفيقاك واكسرا الباب إذا لم يرد أحد فتحه.

صعد الثلاثة، ورغم أن عدد المخازنية لم يكن كافيًا، فإن القائد كان مرتاحًا، لأن الأمر لم يكن متعلقًا سوى بمعلم وبأسلحة في حيّ خلفي تنقصه الإنارة ولا تنقصه الرشوة ولا الحشيش ولا الكحول. إنه حيّ هادئ جدًا. فكل المشاكل تحل هنا بسهولة وبعيدًا عن السلطة المركزية. إلا أن مشكلة السلاح هذه هي التي جعلت القائد يفقد أعصابه. لكن أحد المخازنية أعاد لكل الناس صوابهم وهو ينزل متقدمًا صديقيه:

- سيدي، ليس هناك أي سلاح في بيت تلك الفاسدة. والمعلم غير موجود.

كان صديقه في الخلف يحمل جنينًا ملفوفًا في خرقة بالية، وقال للقائد:

- أنظر يا سيدي، إنهن يفعلن ذلك دائـمًا في الحـيّ. إنهـن يحملن في أماكن أخرى، ويأتين إلى هذا الحيّ ليلقين بأبنائهن.

وقال القائد:

- نحمد الله لأن الأمر لا يتعلق بسلاح. ولكن هذا الجنين سلاح من نوع آخر. خذه معك. خـذه إلى أي مكـان .. أرض المملكة واسعة. ألا تـرى أن المطـر غزيـر، وأن الحـيّ الخلفـي مظلم، وأن النساء يلقـين بأبنـائهن وأن تحمـل بندقيـة وأننـي صُفعت وأن أحدًا لن يفهم ما ورد في هذا الكتـاب، وأن كـذا وكذا وانتهى.

رواية

مكتبة الأدب المغربي

الحي الخلفي

محمد زفزاف

" كانوا يسيرون من زقاق لآخر، و كان المفروض أحياناً أن يجتمع مجموعة من الشبّان يثرثرون و يتحششون في زاوية هذا الزقاق أو ذاك و يشربون ماء الحياة المجلوب من مدن الجنوب. فهو رخيص الثمن و يستطيع مع قليل من الحشيش أن يحلق بصاحبها إلى مركز الشرطة، ثم إلى قاضي التحقيق ثم إلى سجن غبيلة. لا بأس! فالسجن أهون من الإقامة في مركز الشرطة، ففي السجن هناك على الأقل حشيش و أكل و أحياناً علب سجائر أمريكية. يحصل عليها السجين بالدفع، دفع أي شيء حتى ولو كان... لم يعد أي شيءٍ عيباً في هذه الحياة ما دام الإنسان مصراً على أن يعيشها. "

9 789774 990908

الغلاف: حسين جبيل

رؤية